المملكة العربية السعودية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
عمادة التعليم عن بعد
كلية الشريعة ـ الانتساب المطور

(عقد ١١٣)

مختصر التَوحِيدِ

المستوى الثامن

أستاذ المقرر/ د . حمد التويجري

هذا الملخص تم تلخيصه من المذكرات المفرغة

كلية الشريعة

انتساب مطور

" تاريخ إعداد الملخص ١٤٣٣هـ"

كتب الله أجر كل من عمل على إعدادها وجعلها له صدقة جارية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التلخيص

تم عمل هذا الملخص من المذكرات المفرغة

التي قام بإعدادها طلاب وطالبات كلية الشريعة الانتساب المطور ، في منتدى مكتبة كلية الشريعة، وهو لا يغني عن المذكرات المفرغة؛ لاحتوائها على كامل المادة العلمية الموجودة في الحلقات الصوتية.

وما هذا الملخص إلا استخلاص للمفيد والمهم من المعلومات الواردة في المذكرات بنظري، وتم إعداده بجهد فردي مني اعتمادًا على المادة المفرغة في المذكرات

وفي حال وجود خطأ أو نقص في هذا الملخص أرجو التنبيه في منتدى مكتبة طلاب وطالبات الشريعة للانتساب المطور على هذا الرابط

www.imam8.com

قام بإعداد التلخيص : (مناور النوب)

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الأولى

لماذا سميّ هذا المتن بالتدمرية؟

الجواب: سمي نسبةً لبلد الذين سألوه، الكتاب (بلاد تدمر في الشام).

ثم قال المؤلف: «أَمَّا بَعْدُ : فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ أَنْ أَكْتُبَ لَهُمْ مَضْمُونَ مَا سَمِعُوهُ مِنِّي فِي بَعْضِ الْمَجَالِسِ ؛ مِنْ الْكَلَامِ فِي (التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ) وَفِي (الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ) لِمَسِيسِ الْحَاجَةِ إلَى تَحْقِيقِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ وَكَثْرَةِ الِاضْطِرَابِ فِيهِمَا. فَإِنَّهُمَا مَعَ حَاجَةِ كُلِّ أَحَدٍ إلَيْهِمَا وَمَعَ أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِبَادِ : لَا بُدَّ أَنْ يَخْطِرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ الْخَوَاطِرِ وَالْأَقْوَالِ مَا يَحْتَاجُونَ مَعَهُ إلَى بَيَانِ الْهُدَى مِنْ الضَّلَالِ لَا سِيَّمَا مَعَ كَثْرَةِ مَنْ خَاضَ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ تَارَةً وَبِالْبَاطِلِ تَارَاتٍ وَمَا يَعْتَرِي الْقُلُوبَ فِي ذَلِكَ : مِنْ الشُّبَهِ الَّتِي تُوقِعُهَا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ

أولاً: قول المؤلف: «فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ» هذا هو سبب تأليف الرسالة

السبب الأول: «حَاجَةِ كُلِّ أَحَدٍ إلَيْهِمَا» إلى هذين الأصلين، لماذا؟ لأنه لا يستقيم دين العبد إلا بتحقيقهما.

السبب الثاني: يقول: «أَنَّ أَهْلَ النَّظَرِ وَالْعِلْمِ وَالْإِرَادَةِ وَالْعِبَادِ: لَا بُدَّ أَنْ يَخْطِرَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ مِنْ الْخَوَاطِرِ وَالْأَقْوَالِ مَا يَحْتَاجُونَ مَعَهُ إلَى بَيَانِ الْهُدَى مِنْ الضَّلَالِ - أهل النظر: المقصود بهم أهل الكلام، سموا بأهل النظر؛ لأنهم يوجبون النظر على كل مكلف، وأهل الإرادة والعبادة: يشير به إلى أهل التصوف، وأهل العلم: عموم الناس من أهل العلم.

السبب الثالث: «كَثْرَةِ مَنْ خَاضَ فِي ذَلِكَ بِالْحَقِّ تَارَةً وَبِالْبَاطِلِ تَارَاتٍ» كثرة فرق الأمة، وكثرة الآراء، وكثرة الاختلافات.

السبب الرابع: «مَا يَعْتَرِي الْقُلُوبَ فِي ذَلِكَ : مِنْ الشُّبَهِ الَّتِي تُوقِعُهَا فِي أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ» لأن الشُبهة إذا وقعت في القلب إن لم تنتزع بالعلم الشرعي وبالحق وإلا صارت سببًا لضلال صاحبها.

المحاضرة الثانية

المسألة الثالثة: الذي يظهر أن الذين سألوا الشيخ كانوا من طلبة العلم والدليل عدة ملحوظات:

الملحظ الأول: قول الشيخ: «فَقَدْ سَأَلَنِي مَنْ تَعَيَّنَتْ إِجَابَتُهُمْ أَنْ أَكْتُبَ» أَنْ أَكْتُبَ: طلبهم من الشيخ أن يكتب لهم الجواب هذا يدل على أنهم من طلبة العلم،

الملحظ الثاني: قول الشيخ: «مَا سَمِعُوهُ مِنِّي فِي بَعْضِ الْمَجَالِسِ» فهذا يدل على أنهم كانوا يلازمون الشيخ في مجالسه، وغالب من يلازم المشايخ في دروسهم وحلقاتهم هم طلبة العلم وليسوا العوام.

الملحظ الثالث: تحديد السؤال ودقته.

الملحظ الرابع مضمون إجابة الشيخ.

المسألة الرابعة: موضوع الرسالة قوله : «الْكَلَامِ فِي (التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ) وَفِي (الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ)» .

ذكر الشيخ الفروق بين هذين الأصلين اللذان هما موضوع الكتاب بينهما فروق متعددة:

يقول: «فَالْكَلَامُ فِي بَابِ (التَّوْحِيدِ وَالصِّفَاتِ): هُوَ مِنْ بَابِ الْخَبَرِ الدَّائِرِ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالْكَلَامُ فِي (الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ): هُوَ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ الدَّائِرُ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَبَيْنَ الْكَرَاهَةِ وَالْبُغْضِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا، وَالْإِنْسَانُ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ؛ وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ وَبَيْنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ وَالْحَضِّ وَالْمَنْعِ؛ حَتَّى إنَّ الْفَرْقَ بَيْنَ هَذَا النَّوْعِ وَبَيْنَ النَّوْعِ الْآخَرِ مَعْرُوفٌ عِنْدَ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ وَمَعْرُوفٌ عِنْدَ أَصْنَافِ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْعِلْمِ كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الْفُقَهَاءُ فِي كِتَابِ

الْأَيمَانِ وَكَمَا ذَكَرَهُ الْمُقَسِّمُونَ لِلْكَلَامِ؛ مِنْ أَهْلِ النَّظَرِ وَالنَّحْوِ وَالْبَيَانِ، فَذَكَرُوا أَنَّ الْكَلَامَ نَوْعَانِ: خَبَرٌ وَإِنْشَاءٌ، وَالْخَبَرُ دَائِرٌ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ، وَالْإِنْشَاءُ أَمْرٌ أَوْ نَهْيٌ أَوْ إِبَاحَةٌ»

*الفرق الأول: من ناحية نوع الكلام، الكلام في باب (التوحيد والصفات) من باب الخبر، والكلام في (الشرع والقدر) من باب الإنشاء و الخبر إما أن يكون منفيًا أو مثبتًا.

«وَالْكَلَامُ فِي (الشَّرْعِ وَالْقَدَرِ): هُوَ مِنْ بَابِ الطَّلَبِ وَالْإِرَادَةِ الدَّائِرُ بَيْنَ الْإِرَادَةِ وَالْمَحَبَّةِ وَبَيْنَ الْكَرَاهَةِ وَالْبُغْضِ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا» ؛ إنشاء، لا يصلح فيه النفي وإنما هو إما أمر أو نهي أو إباحة.

أيضًا من الفروق بين الاثنين: أن الخبر إما أن يكون صادق لذاته أو كاذب لذاته ، بخلاف فهو يدور على المحبة والبغض والحض والمنع.

يقول: «وَالْإِنْسَانُ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْفَرْقَ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ -هذا ما يتعلق بالخبر- وَالتَّصْدِيقِ وَالتَّكْذِيبِ» هذا أيضًا متعلق بالخبر.

«وَبَيْنَ الْحُبِّ وَالْبُغْضِ وَالْحَضِّ وَالْمَنْعِ» هذا ما يتعلق بالإنشاء، فالإنسان يفرق بين هذا وهذا بطبعه.

الخلاصة: الفرق الأول بين الصفات وبين الشرع والقدر من جهة نوع الكلام، أن الصفات من باب الخبر، والشرع والقدر من باب الطلب من باب الإنشاء، هذا هو الفرق الأول.

*الفرق الثاني:

من ناحية الواجب فيهما، فيجب في (التوحيد والصفات) أن تثبت لله صفات الكمال وتنفي عنه ما يضاد هذه الصفات من صفات النقص، ويجب في (الشرع والقدر) أن تثبت عموم خلقه وأمره سبحانه، فتؤمن بأنه خالق كل شيء، وأنه على كل شيء قدير، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وأيضًا تؤمن وتثبت أمره المتضمن إثبات ما يحبه ويرضاه سواء من الأقوال أو الأعمال الظاهرة والباطنة.

المحاضرة الثالثة

*الفرق الثالث : من ناحية ما يتضمنه هذان الأصلان:

يقول: « وَالْأَوَّلُ» الذي هو (التوحيد والصفات).

« وَالْأَوَّلُ يَتَضَمَّنُ التَّوْحِيدَ فِي الْعِلْمِ وَالْقَوْلِ كَمَا دَلَّت عَلَى ذَلِكَ سُورَةُ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وَدَلَّت عَلَى الْآخر سُورَةُ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وَهُمَا سُورَتَا الْإِخْلَاصِ وَبِهِمَا كَانَ يَقْرَأُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ فِي رَكْعَتَيْ الْفَجْرِ وَرَكْعَتَيْ الطَّوَافِ وَغَيْرِ ذَلِكَ»

أهل العلم قسموا التوحيد إما قسمة ثلاثية أو قسمة

*توحيد الإثبات والمعرفة:

*توحيد القصد والطلب: هو المتضمن ماذا؟ الكلام في (الشرع والقدر) الذي هو توحيد الألوهية.

المقصود بالسلف هم: أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن اتبعهم من التابعين وتابعيهم، جملة من عاش في القرون المفضلة هؤلاء هم سلف الأمة.

يقول: «وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ طَرِيقَةَ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا إِثْبَاتُ مَا أَثْبَتَهُ مِنْ الصِّفَاتِ»

طريقة منهج السلف: أنهم يثبتون ما أثبته الله من هذه الصفات «مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ»

التكييف مأخوذ من الكيفية؛ وهي هيئة الشيء التي هو عليها، فالتكييف تحديد كل الصفات والسؤال عنها غالبًا يكون بكيف،

«مِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ»

التمثيل: مأخوذ من المثل، والمثل هو النظير، وهو الحكم على الشيء بأنه مثل الشيء الآخر.

التكييف والتمثيل بالطبع بينهما تلازم، فكل من كيّف صفة فقد شبّه الله بخلقه..

يقول الشيخ: «وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ»

التحريف ينقسم إلى قسمين: تحريف في اللفظ،

وتحريف في المعنى.

النوع الأول: تحريف اللفظ: أن تغير في حروف هذا اللفظ أو في حركات هذا اللفظ، فإذا تلوت قول الله عز وجل ﴿وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ تلوتها بنصب لفظ الجلالة كما تلاها بعض الجهمية لينفوا عن الله صفة الكلام.

النوع الثاني: التحريف المعنوي: وهذا هو الغالب وهو الكثير عند أهل الضلال خاصة ممن خاض في توحيد الأسماء والصفات بغير علم، يبقون اللفظ على لفظه لا يغيرون في اللفظ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ لكن؛ إذا قيل لهم ما معنى الاستواء؟ قالوا: معنى الاستواء: الاستيلاء ، ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ قالوا: لما خلقت بقدرتي، ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ قالوا: وجاء أمر ربك، وهكذا يغيرون في المعاني ويبقون اللفظ.

الشيخ قال: «وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ» لماذا قال من غير تحريف ولم يقل من غير تأويل ؟

لأن التأويل منه ما هو حق ومنه ما هو باطل

«وَمِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ»

التعطيل مأخوذ من الخلو والفراغ ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ أي ليس عليها رشاء ولا دلاء.

أما في الاصطلاح: فتعطيل الرب عما يستحقه سبحانه وتعالى من صفات الكمال أو تعطيل شيء منها أو تعطيل آياته.

المحاضرة الرابعة

قال المؤلف: «وَكَذَلِكَ يَنْفُونَ عَنْهُ مَا نَفَاهُ عَنْ نَفْسِهِ» ينفون ما نفاه عن نفسه مثل: صفة الظلم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ، صفة النوم ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ ، صفة التعب ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾.

«مِنْ غَيْرِ إِلْحَادٍ» ينفون لكن لا يلحدون، والإلحاد في اللغة: الميل، ولهذا سمي اللحد لحدًا؛ لأنه مائل عن وسط القبر، أما في الاصطلاح: فهو العدول ، الإلحاد له أنواع كثيرة، ذكر ابن القيم رحمه الله خمسة أنواع من الإلحاد- من أنواع الإلحاد: العدول بأسماء الله وصفاته عن معناها الصحيح إلى معانٍ باطلة سواء من جهة الإثبات أو جهة النفي.

يقول: «مِنْ غَيْرِ إِلْحَادٍ: لَا فِي أَسْمَائِهِ وَلَا فِي آيَاتِهِ» الإلحاد إما أن يكون في أسماء الله أو في آياته، ومن صور الإلحاد في أسماء الله:

نفي ما تضمنته هذه الأسماء من الصفات؛ كما هي الحال عند المعتزلة لما قالوا: عليم من غير علم كعلم محض ،

من الإلحاد في أسماء الله: تعطيل أسماء الله كما صنع الجهمية والباطنية.

من الإلحاد في أسماء الله كما ذكر ابن القيم: أن تسمى الأصنام بأسمائه سبحانه وتعالى، كما سمى المشركون اللات من الإله، والعزى من العزيز.

«مِنْ غَيْرِ إِلْحَادٍ: لَا فِي أَسْمَائِهِ وَلَا فِي آيَاتِهِ» آيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين:

آياته الكونية وآياته الشرعية.

الآيات الكونية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

أما آيات الله الشرعية كقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾

فالآية الأولى الإلحاد في أسماء الله ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ الآية الثاني ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ سواء الآيات الكونية أو الآيات الشرعية.

يقول: «فَطَرِيقَتُهُمْ» أهل السنة والجماعة يقوم على أصول ثلاثة:

الأصل الأول: إثبات صفات الكمال.

الأصل الثاني: تنزيه الله عز وجل عن صفات النقص والعيب.

الأصل الثالث: نفي العلم بالكيفية.

ولهذا قال: «إِثْبَاتًا بِلَا تَشْبِيهٍ» يعني يثبتون؛ لكن لا يشبهون.

«وَتَنْزِيهًا بِلَا تَعْطِيلٍ» يعني لم يحملهم التنزيه كما هي الحال عند المعطلة إلى تعطيل الخالق عما يستحقه من صفات الكمال..

يقول: «فَفِي قَوْلِهِ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رَدٌّ لِلتَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ» هذا رد على المشبهة والممثلة .

وقال : «﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رَدٌّ لِلْإِلْحَادِ وَالتَّعْطِيلِ» ردٌّ لمن ألحدوا في أسماء الله وصفاته وعطلوها.

يقول: «وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ: بَعَثَ رُسُلَهُ بِإِثْبَاتٍ مُفَصَّلٍ وَنَفْيٍ مُجْمَلٍ فَأَثْبَتُوا لِلَّهِ الصِّفَاتِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَنَفَوْا عَنْهُ مَا لَا يَصْلُحُ لَهُ مِنْ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾» وهذه القاعدة تقول:

أن التفصيل فيما يتعلق بصفات الله يكون في الإثبات، والإجمال يكون في النفي..

الإجمال هو: التعميم والإطلاق.

المحاضرة الخامسة

إذًا سورة الإخلاص تضمنت إثباتٌ مفصل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، ونفيٌ مفصّل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، ونفيٌ مُجمل ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

ثم قال وقوله: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ إثبات العلم والحكمة وهذا إثبات مُفصل

﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ إثبات العلم والقدرة.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ إثبات السمع والبصر.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ إثبات العزة والحكمة.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ إثبات المغفرة والرحمة.

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ إثبات المغفرة وإثبات صفة الودود واسم الودود، وإثبات الفعل له سبحانه وتعالى أنه فعال لما يريد.

ويقول: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إثبات الأولية والآخرية والظهور الذي هو العلو والباطن بعلمه؛ كما فسره النبي صلى الله عليه وسلم ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إثبات العلم.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ إثبات الخلق وإثبات الاستواء، ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ إثبات العلم، ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ إثبات المعية له سبحانه ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ إثبات البصر، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ إثبات صفة السخط لله عز وجل واثبات صفة الرضا.

﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ إثبات صفة المحبة لله عز وجل وأنه يُحِب ويُحب خلافًا لمذهب الجهمية والمعطلة من المعتزلة والأشاعرة إثبات في هذه الصفة أن الله يُحب ويُحَب سبحانه وتعالى على الوجه اللائق به سبحانه، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ إثبات صفة الرضا.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ إثبات صفة الغضب لله عز وجل.

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ إثبات صفة المقت وهو أشد البغض.

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ إثبات الإتيان لله عز وجل.

وقوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ إثبات صفة الكلام لله عز وجل، **وقوله:** ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ أيضًا إثبات صفة الكلام لله عز وجل، ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ إثبات المناداة لله عز وجل (المناجاة) المناداة تكون من بعيد وبصوت مرتفع، والمناجاة من قريب وبصوت منخفض،

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أيضًا إثبات صفة المناداة لله عز وجل.

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إثبات الإرادة لله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ إثبات صفة الرحمة، وقوله: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ إلى آخره، الشاهد: أن هذه الصفات جميعها تثبت لله عز وجل على الوجه اللائق به سبحانه وتعالى، ونلاحظ أن هذه الصفات أثبتها الله لنفسه على وجه التفصيل أي التعيين والتخصيص، وهذا يتوافق مع القاعدة الشرعية العامة؛ وهو اللائق به سبحانه وتعالى.

يقول: «إِلَى أَمْثَالِ هَذِهِ الْآيَاتِ وَالْأَحَادِيثِ الثَّابِتَةِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَسْمَاءِ الرَّبِّ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ مِنْ إثْبَاتِ ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَإِثْبَاتِ وَحْدَانِيَّتِهِ بِنَفْيِ التَّمْثِيلِ مَا هَدَى اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ إلَى سَوَاءِ السَّبِيلِ فَهَذِهِ طَرِيقَةُ الرُّسُلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ».

هناك سؤال: هل يرد في القرآن إثبات مُجمل ونفي مفصل في صفات الله عز وجل؟

نعم، يأتي على خلاف القاعدة؛ لكنه قليل: مثال الإثبات المجمل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾، نفي مفصل ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾.

بعد ذلك قال المؤلف: «وَأَمَّا مَنْ زَاغَ وَحَادَ عَنْ سَبِيلِهِمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ» طريقة هؤلاء اتبعوا السبل، حادوا وزاغوا عن طريقة الرسل.

«مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَمَنْ دَخَلَ فِي هَؤُلَاءِ مِنْ الصَّابِئَةِ والمتفلسفة والجهمية وَالْقَرَامِطَةِ وَالْبَاطِنِيَّةِ وَنَحْوِهِمْ : فَإِنَّهُمْ عَلَى ضِدِّ ذَلِكَ»

، قال: «مِنْ الْكُفَّارِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَمَنْ دَخَلَ فِي هَؤُلَاءِ مِنْ الصَّابِئَةِ» الصابئة: قوم إبراهيم، ذكر شيخ الإسلام أنهم كثيرًا ما كانوا في حرَّان بلد الفلاسفة وتأثر أهل الفلسفة بهم.

«مِنْ الصَّابِئَةِ والمتفلسفة»، فلسفة تعريفها هي: في الأصل كلمة يونانية معناها: محبةُ الحكمة، لكن المقصود بالفلاسفة هنا الفلاسفة الإلهيين، هؤلاء الذين ألحدوا في أسماء الله وصفاته، والجهمية نسبةً إلى جهم بن صفوان زعيم المعطلة، والقرامطة نسبةً إلى حمدان قرمط، وهؤلاء باطنية، والقرامطة الباطنية الذين يزعمون أن للنصوص ظاهر وباطن وأن ظاهرها يخالف باطنها.

يقول: «يَصِفُونَهُ بِالصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَلَا يُثْبِتُونَ إلَّا وُجُودًا مُطْلَقًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَ التَّحْصِيلِ»

إذًا هم لا يصفون الله إلا بالصفات السلبية (السلب: النفي) ذكر الأشعري أن مذهبهم: يقولون: (ليس بجسم ولا صورة ولا جثة ولا يتكلم ولا يسمع ولا يبصر وليس فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا داخل العالم ولا خارجه...)

وإذا جاء في جانب الإثبات يقتصرون على الإثبات المطلق وهو الوجود المطلق .

ولهذا قال الشيخ: «وَلَا يُثْبِتُونَ إلَّا وُجُودًا مُطْلَقًا لَا حَقِيقَةَ لَهُ عِنْدَ التَّحْصِيلِ، وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إلَى وُجُودٍ فِي الْأَذْهَانِ» الوجود المطلق ليس له حقيقة، الوجود المطلق هذا الذي تشترك فيه كل الموجودات

الوجود المطلق أين هو؟ في الذهن.

«وَإِنَّمَا يَرْجِعُ إلَى وُجُودٍ فِي الْأَذْهَانِ، يَمْتَنِعُ تَحَقُّقُهُ فِي الْأَعْيَانِ» يعني يستحيل وجوده عينًا.

«فَقَوْلُهُمْ يَسْتَلْزِمُ غَايَةَ التَّعْطِيلِ وَغَايَةَ التَّمْثِيلِ» :

غاية التعطيل: يستلزم إنكار وجود الله عز .

وغاية التمثيل: أنهم مثلوا الله بالممتنعات، ومثلوه بالمعدومات هذا هو نهاية التمثيل.

يقول: «فَإِنَّهُمْ يُمَثِّلُونَهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ

وَالْجَمَادَاتِ ؛ وَيُعَطِّلُونَ الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ تَعْطِيلًا يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الذَّاتِ»

الممتنع: الشيء الذي لا يوجد؛ يعني الذي يستحيل وجوده في الخارج.

وأما المعدومات: الشيء المعدوم لكن ممكن أن يوجد، ع.

الجمادات: هي التي لا حياة فيها،

المحاضرة السادسة

▪يقول رحمه الله تكملة للكلام السابق: «فَغُلَاتُهُمْ يَسْلُبُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ» المعطلة هؤلاء ليسوا على درجة واحد في التعطيل؛ فمنهم الغلاة ومنهم الأخف، يعني هم على درجات فلا نساوي بين المعتزلي وبين الجهمي، المعتزلي خير من الجهمي يثبت الأسماء وإن كان إثباته فيه غبش؛ لكن يبقى أنه مثبت على وجه العموم، بخلاف الجهمي.

والجهمية النُفاة خير من الغلاة منهم.

النقيضان كما عرفهما أهل المنطق والكلام هما: الشيئان اللذان لا يجتمعان معًا ولا يرتفعان معًا .

. الشيخ يقول: «يَسْلُبُونَ عَنْهُ النَّقِيضَيْنِ» ا

قال:« فَيَقُولُونَ : لَا مَوْجُودَ وَلَا مَعْدُومَ وَلَا حَيَّ وَلَا مَيِّتَ وَلَا عَالِمَ وَلَا جَاهِلَ» .

قال: «لِأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ إِذَا وَصَفُوهُ بِالْإِثْبَاتِ شَبَّهُوهُ بِالْمَوْجُودَاتِ».

«وَإِذَا وَصَفُوهُ بِالنَّفْيِ شَبَّهُوهُ بِالْمَعْدُومَاتِ».

يقول: «فَسُلِبُوا النَّقِيضَيْنِ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي بَدَاهَةِ الْعُقُولِ

يقول : «وَهَذَا مُمْتَنِعٌ فِي بَدَاهَةِ الْعُقُولِ ؛ وَحَرَّفُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ» يعني جمعوا بين مخالفة بداهة العقل وتحريف ما أنزله الله عز وجل على رسوله حرفوا كلام الله عز وجل.

«فَوَقَعُوا فِي شَرٍّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ» قالوا: نخشى أن نشبه الله بالموجودات أو بالمعدومات، إذًا نسلب عنه النقيضين؛ لأجل ألّا نشبه بالمعدومات ولا بالموجودات،

«فَإِنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ»

يقول: «وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ الْوُجُودَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ» فإذا أثبتوا وجود الله لزمهم إثبات بقية الصفات، يقول: «وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ» يعني العلم الضروري:وهو مالا يحتاج إلى تأمل ونظر، يكون بالعقل ويكون بالشرع، ويكون بالحس.

«وَاجِبٍ بِذَاتِهِ» هو الذي لا يقبل الحدوث ولا العدم بذاته.

يقول: «غَنِيٍّ عَمَّا سِوَاهُ» يعني ليس مفتقر لغيره.

إذًا هذا «الْوُجُودَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُوجِدٍ وَاجِبٍ بِذَاتِهِ غَنِيٍّ عَمَّا سِوَاهُ ؛ قَدِيمٍ أَزَلِيٍّ» قديم بمعنى هو الأول؛ هذه من عبارات المتكلمين ويستخدمها أهل السنة في معرض الرد ومعرض العرض أن يُخبر الله عز وجل عنه أنه قديم، والقديم ما لا أول له في اصطلاح المتكلمين، «أَزَلِيٍّ» أزلي تأكيد لقضية القِدَم؛ بأنه ليس له بداية ليس له أول سبحانه وتعالى.

«لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ الْحُدُوثُ وَلَا الْعَدَمُ» هذا تعريف واجب الوجود.

يقول: «فَوَصَفُوهُ بِمَا يَمْتَنِعُ وُجُودُهُ» يعني واجب الوجود على النقيض تمامًا من ممتنع الوجود.

«فَوَصَفُوا اللَّهَ عز وجل بِمَا يَمْتَنِعُ وُجُودُهُ فَضْلًا عَنْ الْوُجُوبِ أَوْ الْوُجُودِ أَوْ الْقِدَمِ» بالطبع القِدَم عندنا: قِدَم نسبي، وقِدَم مطلق، القدم النسبي كقِدَم الوالد على ابنه متقدم عليه هذا قِدَم نسبي، أما القِدَم المطلق وهو التقدم على كل شيء وهذا خاص بالله عز وجل.

▪«وَقَارَبَهُمْ طَائِفَةٌ -يعني قارب الغلاة؛ لكن ليسوا على مذهبهم- مِنْ الْفَلَاسِفَةِ وَأَتْبَاعَهُمْ فَوَصَفُوهُ بِالسُّلُوبِ وَالْإِضَافَاتِ دُونَ صِفَاتِ الْإِثْبَاتِ وَجَعَلُوهُ هُوَ الْوُجُودَ الْمُطْلَقَ بِشَرْطِ الْإِطْلَاقِ» وصفوه بالسلوب: أي وصفوا الله بالنفي

وصفوه بالصفات الإضافية : وهي عبارة عن: ماهيتين تَعَقُّل كل واحدةٍ منهما لا يتم إلا بتعقل الأخرى مثل: البنوّة والأبوّة .

مثال الصفات الإضافية: لما وصف الله عز وجل بأنه (عِلّة) تعالى الله، يعني عِلة في الأشياء، هذه وصفة إضافية يعني لا يمكن أن يُسمى أو يوصف بالعلة إلا بوجود المعلول الذي هو المخلوق.

يقول: «وَقَدْ عُلِمَ بِصَرِيحِ الْعَقْلِ أَنَّ هَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا فِي الذِّهْنِ لَا فِيمَا خَرَجَ عَنْهُ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ» يعني هذا الشيء الوجود المطلق وجوده فقط في الذهن ليس موجودًا في الخارج.

«وَجَعَلُوا الصِّفَةَ هِيَ الْمَوْصُوفَ ، فَجَعَلُوا الْعِلْمَ عَيْنَ الْعَالِمِ» .

«مُكَابَرَةً لِلْقَضَايَا الْبَدِيهَاتِ» يعني للأشياء المعروفة بديهةً.

«وَجَعَلُوا هَذِهِ الصِّفَةَ هِيَ الْأُخْرَى» بمعنى جعلوا العلم هو الحكمة، والحكمة هي القدرة، والقدرة هي السمع، والسمع هو البصر.

«فَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْمَشِيئَةِ جَحْدًا لِلْعُلُومِ الضَّرُورِيَّاتِ».

المحاضرة السابعة

▪ثم قال: «وَقَارَبَهُمْ طَائِفَةٌ ثَالِثَةٌ مَنْ أَهْلِ الْكَلَامِ مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ ؛ فَأَثْبَتُوا لِلَّهِ الْأَسْمَاءَ دُونَ مَا تَتَضَمَّنُهُ مِنْ الصِّفَاتِ» بمعنى الآن ذكر مذهب المعتزلة، المعتزلة هم أتباع واصل بن عطاء سموا بذلك لأنهم اعتزلوا مجلس الحسن البصري -رحمه الله- لما اختلف هو وإياه في حكم مرتكب الكبيرة، فقال الحسن: (اعتزلنا واصل) فسموا معتزلة، هؤلاء مذهبهم في الأسماء والصفات أنهم يثبتون الأسماء دون الصفات، يقول: فأثبتوا له الأسماء دون ما تضمنته من الصفات، يقولون: سميع يعني يسمى سميع لكن لا يتصف بالسمع، بصير لا يتصف بالبصر، حيّ يُسمى حيّ لكن لا يتصف بالحياة.

«فَمِنْهُمْ مَنْ جَعَلَ الْعَلِيمَ وَالْقَدِيرَ ؛ وَالسَّمِيعَ ؛ وَالْبَصِيرَ ؛ كَالْأَعْلَامِ الْمَحْضَةِ» العَلَم المحض المقصود به اللفظ الذي لا يدل إلا على العَلَمية ولا يدل على الوصفية..

يقول: «كَالْأَعْلَامِ الْمَحْضَةِ الْمُتَرَادِفَاتِ» الترادف اختلاف اللفظ واتحاد المعنى.

يقول: «وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ عَلِيمٌ بِلَا عِلْمٍ قَدِيرٌ بِلَا قُدْرَةٍ سَمِيعٌ بَصِيرٌ بِلَا سَمْعٍ وَلَا بَصَرٍ فَأَثْبَتُوا الِاسْمَ دُونَ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ الصِّفَاتِ» الخلاف بينهم خلاف لفظي، أولئك أثبتوا الأسماء دون أن ينصوا على نفي الصفة، وهؤلاء الطائفة من المعتزلة قالوا: لابد أن نقول: سميع بلا سمع؛ .

يقول: «وَالْكَلَامُ عَلَى فَسَادِ مَقَالَةِ هَؤُلَاءِ وَبَيَانِ تَنَاقُضِهَا بِصَرِيحِ الْمَعْقُولِ الْمُطَابِقِ لِصَحِيحِ الْمَنْقُولِ مَذْكُورٌ فِي غَيْرِ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ.

يقول: «- وَهَؤُلَاءِ جَمِيعُهُمْ يَفِرُّونَ مِنْ شَيْءٍ فَيَقَعُونَ فِي نَظِيرِهِ وَفِي شَرٍّ مِنْهُ» من التشبيه فنفوا عن الله عز وجل هذه الصفات وهذه الأسماء، والغلاة نفوا عنه النقيضين خشية الوقوع في التشبيه.

«مَعَ مَا يَلْزَمُهُمْ مِنْ التَّحْرِيفِ وَالتَّعْطِيلِ» حرفوا الكلِم عن مواضعه، حرفوا نصوص الشرع، عطلوا الرب سبحانه وتعالى عما يستحقه من الصفات.

يقول: «وَلَوْ أَمْعَنُوا النَّظَرَ لَسَوَّوْا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَاتِ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُخْتَلِفَاتِ كَمَا تَقْتَضِيهِ الْمَعْقُولَاتُ وَلَكَانُوا مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِينَ يَرَوْنَ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ»

مثل ما فرق المعتزلة بين الأسماء والصفات

وسوّوا بين المختلفات، مثل: ما صنع الفلاسفة والباطنية لما قالوا: الصفة هي عين الموصوف وهذه الصفة هي الصفة الثانية هذه تسوية بين المختلفات، من قال: أن السمع هو البصر؟ من قال: أن العلم هو القدرة؟ .

يقول: «وَلَكِنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ الْمَجْهُولَاتِ» ليس معهم إلا الجهل حجتهم شبهات زعموا أنها معقولات وزعموا أنها حُجج عقلية، وما هي إلا سراب بقيعة

«الْمُشَبَّهَةِ بِالْمَعْقُولَاتِ» بمعنى الذين وقعوا في التشبيه.

«يُسَفْسِطُونَ فِي الْعَقْلِيَّاتِ» بمعنى أنهم يسلكون مسلك السفسطائيين في الجوانب العقلية، السفسطائيين هم الذين ينكرون كل ما هو ليس بحس.

«وَيُقَرْمِطُونَ فِي السَّمْعِيَّاتِ» أي يسلكون مسالك القرامطة في الأدلة السمعية، بمعنى أنهم يحرفونها ويتلاعبون بها كما تلاعب القرامطة بنصوص الشرع.

ثم قال بعد ذلك: «وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ» الشيخ يريد أن يثبت لهم أنكم فررتم من التشبيه فنحن نثبت لكم أن إثبات الصفة لا يستلزم التشبيه.

يقول: «وَذَلِكَ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ مَوْجُودٍ قَدِيمٍ غَنِيٍّ عَمَّا سِوَاهُ».

يقول: «إِذْ نَحْنُ نُشَاهِدُ -هذا دليل عقلي على إثبات وجود الله- حُدُوثَ الْمُحْدَثَاتِ، كَالْحَيَوَانِ وَالْمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ وَالْحَادِثُ مُمْكِنٌ لَيْسَ بِوَاجِبٍ وَلَا مُمْتَنِعٍ»

يقول: «وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ الْمُحْدَثَ».

إذن [وجوده دليلٌ على عدم امتناعه، وحدوثه دليلٌ على عدم وجوبه]

يقول: «وَقَدْ عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ الْمُحْدَثَ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ مُحْدِثٍ» نحن نعلم ضرورةً بالعقل أن أي محدَث موجود لابد له من موجِد.

يقول: «كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ فَإِذَا لَمْ يَكُونُوا خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ» هذا مستحيل، ولهذا أضرب عز وجل عن الإجابة فالله لم يذكر الإجابة؛ لأن الإجابة معلومة ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ هذا مستحيل، ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ أشد استحالة، ، تعينت القسمة الثالثة أن لهم خالقًا غيرهم وهو الله سبحانه وتعالى أوجدهم متصف بالوجوب.

يقول: «فَإِذَا لَمْ يَكُونُوا خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ خَالِقٍ، وَلَا هُمُ الْخَالِقُونَ لِأَنْفُسِهِمْ تَعَيَّنَ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا خَلَقَهُمْ» وإذا كان من المعلوم بالضرورة أن في الوجود ما هو قديم واجب بنفسه، وما هو محدث ممكن،

المحاضرة الثامنة

يقول: «فَأَمَّا الْأَصْلَانِ: فَأَحَدُهُمَا أَنْ يُقَالَ: (الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ) »

هذه قاعدة عامة يمكن أن يرد بها على أي معطل أيًا كان تعطيله حتى لو لم يعطل إلا صفة واحدة، فنرد عليه بهذه القاعدة الجامعة المانعة؛ وهي أن القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، ابتدأ بأخف فرق التعطيل ألا وهم: (الأشاعرة) أو مذهب جمهور الأشاعرة؛ لأن الأشاعرة فيما بينهم مختلفون في عدد الصفات التي يثبتونها؛ لكن جمهور الأشاعرة متفقون على إثبات سبع صفات يسمونها (الصفات العقلية) أي التي دل عليها العقل، وينفون ما عداها من الصفات. كما أنه سيرد بهذا الأصل على المعتزلة وعلى الغلاة الذين هم الجهمية.

يقول: «فَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِمَّنْ يَقُرُّ : بِأَنَّ اللَّهَ حَيٌّ بِحَيَاةٍ عَلِيمٌ بِعِلْمٍ، قَدِيرٌ بِقُدْرَةٍ، سَمِيعٌ بِسَمْعٍ، بَصِيرٌ بِبَصَرٍ، مُتَكَلِّمٌ بِكَلَامٍ مُرِيدٌ بِإِرَادَةٍ» هذا هو مذهب الأشاعرة، إثبات هذه الصفات السبع :

[الحياة، العلم، القدرة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام.]

يقول: «وَيَجْعَلُ ذَلِكَ كُلَّهُ حَقِيقَةً وَيُنَازِعُ فِي مَحَبَّتِهِ وَرِضَاهُ وَغَضَبِهِ وَكَرَاهَتِهِ فَيَجْعَلُ ذَلِكَ مَجَازًا»

«وَيُفَسِّرُهُ إِمَّا بِالْإِرَادَةِ» يعني يفسر الرضا ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ يقول: الرضا المقصود به هنا: إرادة الإنعام، أو في ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ يقول: إرادة الإنعام لهم أو يفسر الغضب والكراهية بإرادة

الانتقام﴿غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ يقول: أراد أن ينتقم منه، فرارًا من أن يثبت لله صفة الغضب.

يقول: «وَإِمَّا بِبَعْضِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ النِّعَمِ وَالْعُقُوبَاتِ» فيفسر مثلا الرضا بالجنة، ويفسر الغضب بالنار فيقول: ﴿غَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ أي أدخلهم النار.

«فَيُقَالُ لَهُ: -الرد على هذا الأشعري الذي أثبت بعض الصفات ونفى البعض- لَا فَرْقَ بَيْنَ مَا نَفَيْتَهُ" وَبَيْنَ مَا أَثْبَتَهُ بَلْ الْقَوْلُ فِي أَحَدِهِمَا كَالْقَوْلِ فِي الْآخَرِ» قوله: «مَا نَفَيْتَهُ» ماعدا الصفات السبع «وَبَيْنَ مَا أَثْبَتَهُ» أي هذه الصفات السبع، يعني: ما لفرق بين ما نفيته وما أثبته؟! «بَلْ الْقَوْلُ فِي أَحَدِهِمَا كَالْقَوْلِ فِي الْآخَرِ» لماذا؟ لأن الموصوف بها واحد وهو الله – عز وجل- ومصدر تلقيها واحد هو الوحي.

«فَإِنْ قُلْت: -إذا قال الأشعري- إنَّ إرَادَتَهُ مِثْلُ إرَادَةِ الْمَخْلُوقِينَ فَكَذَلِكَ مَحَبَّتُهُ وَرِضَاهُ وَغَضَبُهُ وَهَذَا هُوَ التَّمْثِيلُ»

«وَإِنْ قُلْت : إنَّ لَهُ إرَادَةً تَلِيقُ بِهِ ؛ كَمَا أَنَّ لِلْمَخْلُوقِ إرَادَةً تَلِيقُ بِهِ قِيلَ لَك: وَكَذَلِكَ لَهُ مَحَبَّةٌ تَلِيقُ بِهِ وَلِلْمَخْلُوقِ مَحَبَّةٌ تَلِيقُ بِهِ وَلَهُ رِضًا وَغَضَبٌ يَلِيقُ بِهِ وَلِلْمَخْلُوقِ رِضًا وَغَضَبٌ يَلِيقُ بِهِ» يعني المسألة واحدة أنت تفرق الآن بين المتماثلات.

المحاضرة التاسعة

بعد ذلك قال الشيخ: «وَالْغَايَاتُ الْمَحْمُودَةُ فِي مَفْعُولَاتِهِ وَمَأْمُورَاتِهِ وَهِيَ مَا تَنْتَهِي إلَيْهِ مَفْعُولَاتُهُ وَمَأْمُورَاتُهُ مِنْ الْعَوَاقِبِ الْحَمِيدَةِ» يعني الثمرات والنتائج الطيبة في أفعال الله عز وجل وفي أوامره، الأشياء التي تنتهي إليه مفعولاته وأوامره ونواهيه من الثمرات الطيبة.

«تَدُلُّ عَلَى حِكْمَتِهِ الْبَالِغَةِ» يعني هذه دليل على حكمة الله عز وجل.

قال: «كَمَا يَدُلُّ التَّخْصِيصُ عَلَى الْمَشِيئَةِ -ألستم أثبتم صفة الإرادة و المشيئة بالتخصيص؟ نقول أيضًا الغايات المحمودة دلت على الحكمة كما دل التخصيص على المشيئة- وَأَوْلَى - يقول: بل دلالة الغايات الحميدة على إثبات صفة المشيئة أقوى وأولى في إثبات المشيئة والإرادة بالتخصيص- لِقُوَّةِ الْعِلَّةِ الغائية» ما هي العلة الغائية؟ هي ما يوجد الفعل لأجله ولهذا تدخلها (لام التعليل) ضربت زيدًا ليتعلم، لماذا ضربنا زيد؟ لأجل التعلم. يُقابل العلة الغائية العلة الفاعلية، وهي التي يكون بها الفعل، ولهذا تدخل عليها (باء السببية)، فإذا كتبت شيئًا من الفائدة العلمية فاليد والقلم والقرطاس هي العلة الفاعلية، أما الفائدة العلمية فهي العلة الغائية. إذًا العلة الغائية أقوى من العلة الفاعلية.

يقول: «وَلِهَذَا كَانَ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ مَا فِي مَخْلُوقَاتِهِ مِنْ النِّعَمِ وَالْحِكَمِ : أَعْظَمُ مِمَّا فِي الْقُرْآنِ مِنْ بَيَانِ مَا فِيهَا مِنْ الدَّلَالَةِ عَلَى مَحْضِ الْمَشِيئَةِ.»

الآن يريد أن يرد بهذا الأصل على (المعتزلة) نفاة الصفات دون الأسماء، أكثر غلوًا من الأشاعرة.

يقول: «وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِمَّنْ يُنْكِرُ الصِّفَاتِ وَيُقِرُّ بِالْأَسْمَاءِ كَالْمُعْتَزِلِيِّ الَّذِي يَقُولُ : إنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ وَيُنْكِرُ أَنْ يَتَّصِفَ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ».

يقول: «قِيلَ لَهُ : لَا فَرْقَ بَيْنَ إثْبَاتِ الْأَسْمَاءِ وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ»

«فَإِنَّك إنْ قُلْت : إثْبَاتُ الْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ يَقْتَضِي تَشْبِيهًا أَوْ تَجْسِيمًا لِأَنَّا لَا نَجِدُ فِي الشَّاهِدِ مُتَّصِفًا بِالصِّفَاتِ إلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ» يقول: ما أجد أي شيء يتصف بهذه الصفات التي ذكرتها تريد أن تصف الله عز وجل بها إلا ما هو جسم والأجسام متماثلة، فأنا لأجل أن لا أمثل الخالق بالمخلوق أنفي عنه الصفات.

هذا الرد: «قِيلَ لَك : وَلَا نَجِدُ فِي الشَّاهِدِ مَا هُوَ مُسَمًّى حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ إلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ»

«فَإِنْ نَفَيْت مَا نَفَيْت لِكَوْنِك لَمْ تَجِدْهُ فِي الشَّاهِدِ إلَّا لِلْجِسْمِ فَانْفِ الْأَسْمَاءَ بَلْ وَكُلَّ شَيْءٍ لِأَنَّك لَا تَجِدُهُ فِي الشَّاهِدِ إلَّا لِلْجِسْمِ» فيلزمك أن تنفي الأسماء؛ لأجل ألّا تفرق بين المتماثلات بل وكل شيء لأنك لا تجده في

الشاهد إلا لجسم.

يقول: «فَكُلُّ مَا يَحْتَجُّ بِهِ مَنْ نَفَى الصِّفَاتِ– أي المعتزلي– يَحْتَجُّ بِهِ نَافِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى» أي الجهمي.

«فَمَا كَانَ جَوَابًا لِذَلِكَ، كَانَ جَوَابًا لِمُثْبِتِي الصِّفَاتِ» مثبتوا الصفات قالوا للمعتزلة: كذلك إثبات الصفات لا يستلزم التجسيم،

انتقل إلى الفرقة الثالثة، وهم الغلاة الذين ينفون الأسماء والصفات.

يقول: «وَإِنْ كَانَ الْمُخَاطَبُ مِنْ الْغُلَاةِ نفاة الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَقَالَ لَا أَقُولُ : هُوَ مَوْجُودٌ وَلَا حَيٌّ وَلَا عَلِيمٌ وَلَا قَدِيرٌ ؛ بَلْ هَذِهِ الْأَسْمَاءُ لِمَخْلُوقَاتِهِ إذْ هِيَ مَجَازٌ».

«لِأَنَّ إثْبَاتَ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ التَّشْبِيهَ بِالْمَوْجُودِ الْحَيِّ الْعَلِيمِ قِيلَ لَهُ : كَذَلِكَ إذَا قُلْت : لَيْسَ بِمَوْجُودِ وَلَا حَيٍّ وَلَا عَلِيمٍ وَلَا قَدِيرٍ كَانَ ذَلِكَ تَشْبِيهًا بِالْمَعْدُومَاتِ وَذَلِكَ أَقْبَحُ مِنْ التَّشْبِيهِ بِالْمَوْجُودَاتِ»

قال: «فَإِنْ قَالَ: –هذا الغالي، وهؤلاء هم غلاة الغلاة– أَنَا أَنْفِي النَّفْيَ وَالْإِثْبَاتَ» أنتم الآن ألزمتموني إذا وصفت الله بالنفي؛ قلت: ليس بسميع ولا بصير، وقلت: لا أثبت هذه الأشياء؛ قلت: شبهته بالمعدومات؛ قال: أنا أنفي النفي و أنفي الإثبات؛ أنفي النفي لأجل أن لا تُلزموني بالتشبيه بالمعدومات، وأنفي الإثبات لأجل أن لا أشبهه بالموجودات .

«قِيلَ لَهُ : فَيَلْزَمُك التَّشْبِيهُ بِمَا اجْتَمَعَ فِيهِ النَّقِيضَانِ مِنْ الْمُمْتَنِعَاتِ» أنت الآن فررت من التشبيه بالموجودات والمعدومات فوقعت في شر من الاثنين! شبهته بالممتنعات. دوم.

يقول: «فَإِنَّهُ يَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ الشَّيْءُ مَوْجُودًا مَعْدُومًا أَوْ لَا مَوْجُودًا وَلَا مَعْدُومًا وَيَمْتَنِعُ أَنْ يَكُونَ يُوصَفُ ذَلِكَ بِاجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ أَوْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ أَوْ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ أَوْ يُوصَفُ بِنَفْيِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَنَفْيِ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَنَفْيِ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ»

يقول: «فَإِنْ قُلْت: – أي الجهمي هذا الغالي– إنَّمَا يَمْتَنِعُ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ عَمَّا يَكُونُ قَابِلًا لَهُمَا» يقول: يمتنع نفي النقيضين عن الشيء الذي يكون في الأصل قابل لهما، لكن إذا كان غير قابل ما يمتنع نفي النقيضين، مثال ذلك: مثاله الجدار و الأعمى، الجدار غير قابل للبصر، فإذا نفيت عنه البصر والعمى فهذا ممكن، .

يقول: «فَإِنْ قُلْت إنَّمَا يَمْتَنِعُ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ عَمَّا يَكُونُ قَابِلًا لَهُمَا وَهَذَانِ يَتَقَابَلَانِ تَقَابُلَ الْعَدَمِ وَالْمَلَكَةِ»

يقول: «لَا تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ فَإِنَّ الْجِدَارَ لَا يُقَالُ لَهُ أَعْمَى وَلَا بَصِيرٌ وَلَا حَيٌّ وَلَا مَيِّتٌ إذْ لَيْسَ بِقَابِلِ لَهُمَا»

«قِيلَ لَك : أَوَّلًا: هَذَا لَا يَصِحُّ فِي الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ» يعني: لو سلمنا جدلاً أن هذا يصح في السمع والبصر والحياة والموت والعلم والجهل؛ لكن هذا لا يمكن أن يصح في الوجود والعدم، لأنه لا يمكن أن تقول للجدار لا موجود ولا معدوم، فالجدار موجود ويقبل العدم.

يقول: «هَذَا لَا يَصِحُّ فِي الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ فإنهما مُتَقَابِلَانِ تَقَابُلَ السَّلْبِ وَالْإِيجَابِ، بِاتِّفَاقِ الْعُقَلَاءِ» .

«فَيَلْزَمُ مِنْ رَفْعِ أَحَدِهِمَا ثُبُوتُ الْآخَرِ».

يقول: «وَأَمَّا مَا ذَكَرْته مِنْ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْعِلْمِ وَالْجَهْلِ: فَهَذَا اصْطِلَاحٌ اصْطَلَحَتْ عَلَيْهِ الْمُتَفَلْسِفَةُ الْمَشَّاءُونَ»

–الجواب الثاني: أني لا أسلم لك أن الحياة والموت والعلم والجهل يصح نفيهما عمن ليس بقابل لهما، هذا اصطلاح اصطلحتموه أنتم، والمصطلحات الشخصية لا تغير من الحقائق العلمية، كونكم معاشر الفلاسفة اجتمعتم واصطلحتم على هذا النوع من المصطلح؛ لا يغير من الحقيقة العلمية، فأنتم تقولون: الجدار لا يوصف بالسمع ولا البصر ولا الإرادة، نقول لكم: لا ليس هذا صحيحًا. يقول: «فَهَذَا اصْطِلَاحٌ اصْطَلَحَتْ عَلَيْهِ الْمُتَفَلْسِفَةُ الْمَشَّاءُونَ» أتباع أرسطو.

«وَالِاصْطِلَاحَاتُ اللَّفْظِيَّةُ لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ الْحَقَائِقِ الْعَقْلِيَّةِ» يعني لو جئنا واتفقنا نحن كمجموعة من الناس أصحاب مهنة من المهن اتفقنا على تسمية الخمر مثلًا عصير، هل يغير هذا من الحقيقة العلمية؟ لا، .

يقول: «لَيْسَتْ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ الْحَقَائِقِ الْعَقْلِيَّةِ، وقد قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١)﴾ إذًا الله عز وجل أطلق على الأصنام وهي حجارة جمادات وصفها بالموت، ونفى عنها صفة الحياة.

يقول: «فَسَمَّى الْجَمَادَ مَيِّتًا وَهَذَا مَشْهُورٌ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ»

«وَقِيلَ لَك ثَانِيًا:- هذا أيضًا من الردود على هذا الغالي- فَمَا لَا يَقْبَلُ -يعني سلمت لك جدلًا أنه فعلاً هذه الأشياء لا تقبل الوجود والعدم ولا السمع والبصر ولا الحياة ولا الموت- الِاتِّصَافَ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْعَمَى وَالْبَصَرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ الْمُتَقَابِلَاتِ أَنْقَصُ مِمَّا يَقْبَلُ ذَلِكَ». أيهما أكمل الأعمى القابل للبصر، أم الجدار الذي لا يقبل البصر، على حد قولك ، لا شك بإجماع العقلاء أن الأعمى أكمل من الجدار، فأنت فررت من تشبيه الله عز وجل بما هو قابل؛ إلى تشبيهه بما هو غير قابل على حد قولك، وهذا أسوأ.

«فَالْأَعْمَى الَّذِي يَقْبَلُ الِاتِّصَافَ بِالْبَصَرِ أَكْمَلُ مِنْ الْجَمَادِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ وَاحِدًا مِنْهُمَا فَأَنْتَ فَرَرْت مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالْحَيَوَانَاتِ الْقَابِلَةِ لِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَوَصَفْته بِصِفَاتِ الْجَامِدَاتِ الَّتِي لَا تَقْبَلُ ذَلِكَ»

يقول:«وَأَيْضًا فَمَا لَا يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ : أَعْظَمُ امْتِنَاعًا مِنْ الْقَابِلِ لِلْوُجُودِ وَالْعَدَمِ» الشيء الذي لا يقبل الوجود ولا العدم أعظم وأسوأ من القابل للوجود أو العدم.

«بَلْ وَمِنْ اجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَنَفْيِهِمَا جَمِيعًا»، كون الشيء موجود معدوم أحسن وأفضل عقلاً من الشيء الذي لا يقبل الوجود ولا العدم. مع أن الجميع مستحيل عقلًا، لكن الشيخ الآن في موازنة افتراضية بعيده، «بَلْ وَمِنْ اجْتِمَاعِ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَنَفْيِهِمَا جَمِيعًا» يعني كون الشيء موجود معدوم أو لا موجود ولا معدوم لكنه قابل أفضل وخير مما لا يقبل الوجود ولا العدم.

يقول: «فَمَا نَفَيْت عَنْهُ قَبُولَ الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ . كَانَ أَعْظَمَ امْتِنَاعًا مِمَّا نَفَيْت عَنْهُ الْوُجُودَ وَالْعَدَمَ وَإِذَا كَانَ هَذَا مُمْتَنِعًا فِي صَرَائِحِ الْعُقُولِ» أي الشيء لا موجود ولا معدوم أو معدوم موجود؛ إذا كان هذا ممتنع في صريح العقل

«فَذَاكَ أَعْظَمُ امْتِنَاعًا» كون الشيء لا يقبل الوجود والعدم هذا أشد امتناعًا.

«فَجَعَلْت وُاجِبُ الْوَجِودِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ الْعَدَمَ هُوَ أَعْظَمُ الْمُمْتَنِعَاتِ» بالعقل.

يقول: «وَهَذَا غَايَةُ التَّنَاقُضِ وَالْفَسَادِ»

يقول: «وَهَؤُلَاءِ الْبَاطِنِيَّةُ مِنْهُمْ مَنْ يُصَرِّحُ بِرَفْعِ النَّقِيضَيْنِ : الْوُجُودِ وَالْعَدَمِ وَرَفْعُهُمَا كَجَمْعِهِمَا»

«وَمَنْ يَقُولُ لَا أُثْبِتُ وَاحِدًا مِنْهُمَا».

«فَامْتِنَاعُهُ عَنْ إثْبَاتِ أَحَدِهِمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ لَا يَمْنَعُ تَحَقُّقَ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ» كونه امتنع لا يدل على أن الشيء إما موجود أو معدوم.

«وَإِنَّمَا هُوَ كَجَهْلِ الْجَاهِلِ وَسُكُوتِ السَّاكِتِ الَّذِي لَا يُعَبِّرُ عَنْ الْحَقَائِقِ» .

يقول : «وَإِذَا كَانَ مَا لَا يَقْبَلُ الْوُجُودَ وَلَا الْعَدَمَ أَعْظَمَ امْتِنَاعًا -يعني هم قالوا: أنه لا يقبل الوجود ولا العدم؛ وهذا الشيء أعظم امتناعًا- مِمَّا يُقَدَّرُ قَبُولُهُ لَهُمَا - مَعَ نَفْيِهِمَا عَنْهُ» يعني كون الشيء قابل للوجود والعدم لكنه لا موجود ولا معدوم، هذا أفضل حالاً من الشيء الذي لا يقبل الوجود والعدم؛

«فَمَا يُقَدَّرُ لَا يَقْبَلُ الْحَيَاةَ وَلَا الْمَوْتَ وَلَا الْعِلْمَ

وَلَا الْجَهْلَ وَلَا الْقُدْرَةَ وَلَا الْعَجْزَ وَلَا الْكَلَامَ وَلَا الْخَرَسَ وَلَا الْعَمَى وَلَا الْبَصَرَ وَلَا السَّمْعَ وَلَا الصَّمَمَ : أَقْرَبُ إِلَى الْمَعْدُومِ الْمُمْتَنِعِ مِمَّا يُقَدَّرُ قَابِلًا لَهُمَا مَعَ نَفْيِهِمَا عَنْهُ»

يعني الشيء الذي لا يقبل الاتصاف بالسمع ولا بضده ولا البصر ولا بضده ولا بالكلام ولا بضده؛ هذا أكثر امتناعًا من الشيء القابل لهما و إن كان غير متصف بهما.

«وَحِينَئِذٍ فَنَفْيُهُمَا مَعَ كَوْنِهِ قَابِلًا لَهُمَا أَقْرَبُ إِلَى الْوُجُودِ وَالْمُمْكِنِ» يعني: كونك تنفي هذا الشيء وهو قابل لهما أفضل و أحسن من كونك تنفيه وتقول: أنه غير قابل لهما، أقرب إلى الوجود والممكن.

«وَمَا جَازَ لِوَاجِبِ الْوُجُودِ – قَابِلًا- وَجَبَ لَهُ»

يعني إذا جاز أن يتصف الله عز وجل بهذا الأمر وجب أن يتصف به، إذا جاز أن يتصف بالسمع وجب أن يتصف بالسمع، لماذا؟

يقول: «لِعَدَمِ تَوَقُّفِ صِفَاتِهِ عَلَى غَيْرِهِ» بخلاف المخلوق الممكن، الممكن يقبل هذه الصفة؛ لكن قبول هذه الصفة متوقف على أمور أخرى، سلامة جسده، الله عز وجل ما دام أنه يجوز أن يتصف بصفة هذه الكمال يجب أن يتصف بها. لماذا؟ لعدم توقف صفاته على غيره.

«فَإِذَا جَازَ الْقَبُولُ وَجَبَ» إذا جاز أن يقبل هذه الصفة وجب أن يكون قابلًا لها.

«وَإِذَا جَازَ وُجُودُ الْمَقْبُولِ وَجَبَ» الذي هو الصفة، الجملة الأولى منصب على هل يقبل أو لا يقبل، الجملة هذه منصبة على إثبات الصفة، فإذا جاز وجود المقبول وجب أن يتصف بذلك.

يقول: «وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوْضِعٍ آخَرَ وَبَيْنَ وُجُوبِ اتِّصَافِهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي لَا نَقْصَ فِيهَا بِوَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ»

المحاضرة العاشرة

يقول رحمه الله: «وَقِيلَ لَهُ: -أي لهؤلاء المعطلة على وجه العموم الذين عطلوا الصفات أو عطلوا شيئًا منها- اتِّفَاقُ الْمُسَمَّيَيْنِ فِي بَعْضِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ : لَيْسَ هُوَ التَّشْبِيهَ وَالتَّمْثِيلَ الَّذِي نَفَتْهُ الْأَدِلَّةُ السَّمْعِيَّاتُ وَالْعَقْلِيَّاتُ» يقال له: بعبارة مختصرة أنتم معاشر الأشاعرة ومعاشر المعتزلة ومعاشر الجهمية ومعاشر الغلاة، لماذا نفيتم عن الله عز وجل هذه الأسماء والصفات، أو نفيتم عنه بعضها؟ قالوا: خشية الوقوع في التشبيه، قيل لهم: التشبيه والتمثيل الذي فررتم منه ليس هو التشبيه والتمثيل الذي نفته الأدلة السمعية، الله عز وجل قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ و ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ فليس هو التمثيل الذي فررتم منه.

«وَإِنَّمَا نَفَتْ مَا يَسْتَلْزِمُ اشْتِرَاكَهُمَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِ الْخَالِقُ مِمَّا يَخْتَصُّ بِوُجُوبِهِ أَوْ جَوَازِهِ أَوْ امْتِنَاعِهِ ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَشْرَكَهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ وَلَا يَشْرَكَهُ مَخْلُوقٌ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى» إذًا كقاعدة عامة التمثيل والتشبيه المنفي عن الله أن يوصف الخالق بشيء من خصائص المخلوق أو يوصف المخلوق بشيء من خصائص الخالق.

يقول: «وَأَمَّا مَا نَفَيْته -أي أيها الأشعري أو المعتزلي أو الجهمي- فَهُوَ ثَابِتٌ بِالشَّرْعِ وَالْعَقْلِ وَتَسْمِيَتُك ذَلِكَ تَشْبِيهًا وَتَجْسِيمًا تَمْوِيهٌ عَلَى الْجُهَّالِ»

يقول: «وَلَوْ سَاغَ هَذَا لَكَانَ كُلُّ مُبْطِلٍ يُسَمِّي الْحَقَّ بِأَسْمَاءِ يَنْفِرُ عَنْهَا بَعْضُ النَّاسِ لِيُكَذِّبَ النَّاسُ بِالْحَقِّ الْمَعْلُومِ بِالسَّمْعِ وَالْعَقْلِ» .

يقول: «وَبِهَذِهِ الطَّرِيقَةِ : أَفْسَدَتْ الْمَلَاحِدَةُ عَلَى طَوَائِفِ النَّاسِ عَقْلَهُمْ وَدِينَهُمْ حَتَّى أَخْرَجُوهُمْ إلَى أَعْظَمِ الْكُفْرِ وَالْجَهَالَةِ وَأَبْلَغِ الْغَيِّ وَالضَّلَالَةِ» كمن يطلق على التمسك بالسنة أنه تزمت أنه تطرف ؛ .

يقول: «وَإِنْ قَالَ نفاة الصِّفَاتِ:»، وهذه غالبًا ما يطلقها الفلاسفة والجهمية ومن تأثر بهم.

«إثْبَاتُ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْإِرَادَةِ مُسْتَلْزِمٌ تَعَدُّدَ

الصِّفَاتِ وَهَذَا تَرْكِيبٌ مُمْتَنِعٌ» الآن عند بعض نفاة الصفات شبهة ثانية: أن إثبات الصفات يستلزم التركيب، .

التركيب في اللغة: كون الشيء مكون من شيئين ومنقسم.

أما في اصطلاح الفلاسفة فهو: ما يميز فيه وجه عن وجه أو يتميز فيه بعضه عن بعض. فعندهم تعدد المعاني مثلا: السمع البصر الكلام هذا تركيب؛ والتركيب ممتنع على الله عز وجل.

الرد؛ يقول: «قِيلَ : وَإِذَا قُلْتُمْ : -معاشر الفلاسفة- هُوَ مَوْجُودٌ وَاجِبٌ وَعَقْلٌ وَعَاقِلٌ وَمَعْقُولٌ وَعَاشِقٌ وَمَعْشُوقٌ وَلَذِيذٌ وَمُلْتَذٌّ وَلَذَّةٌ» هذه المعاني يطلقها الفلاسفة على الله عز وجل، يقولون: «هُوَ مَوْجُودٌ وَاجِبٌ وَعَقْلٌ وَعَاقِلٌ ...الخ» نقول لهم هذه أيضًا معاني متعددة ومتغايرة.

«أَفَلَيْسَ الْمَفْهُومُ مِنْ هَذَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ هَذَا ؟» فَهَذِهِ مَعَانٍ مُتَعَدِّدَةٌ مُتَغَايِرَةٌ فِي الْعَقْلِ وَهَذَا تَرْكِيبٌ عندكم» إذا كان إثبات تلك الصفات والأسماء تركيب فهذا أيضًا تركيب.

«وَأَنْتُمْ تُثْبِتُونَهُ وَتُسَمُّونَهُ تَوْحِيدًا فَإِنْ قَالُوا : هَذَا تَوْحِيدٌ فِي الْحَقِيقَةِ وَلَيْسَ هَذَا تَرْكِيبًا مُمْتَنِعًا قِيلَ لَهُمْ : وَاتِّصَافُ الذَّاتِ بِالصِّفَاتِ اللَّازِمَةِ لَهَا تَوْحِيدٌ فِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَلَيْسَ هُوَ تَرْكِيبًا مُمْتَنِعًا وَذَلِكَ أَنَّهُ مِنْ الْمَعْلُومِ فِي صَرِيحِ الْعُقُولِ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْنَى كَوْنِ الشَّيْءِ عَالِمًا هُوَ مَعْنَى كَوْنِهِ قَادِرًا وَلَا نَفْسُ ذَاتِهِ هُوَ نَفْسُ كَوْنِهِ عَالِمًا قَادِرًا ؛ فَمَنْ جَوَّزَ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الصِّفَةُ هِيَ الأخرى والصِّفَةُ هِيَ الْمَوْصُوفَ فَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ النَّاسِ سَفْسَطَةً -والسفسطة هي: المغالطة العقلية الظاهرة- ثُمَّ إنَّهُ مُتَنَاقِضٌ فَإِنَّهُ إنْ جَوَّزَ ذَلِكَ جَازَ أَنْ يَكُونَ وُجُودُ هَذَا هُوَ وُجُودَ هَذَا فَيَكُونُ الْوُجُودُ وَاحِدًا بِالْعَيْنِ لَا بِالنَّوْعِ» يقول: إن أصر وغالط وجوز، قال: هذا جائز، قيل له: إذًا يكون وجود الخالق هو وجود المخلوق، وأصبح الوجود كله وجود واحد بالعين لا بالنوع، ما لفرق بين الواحد بالعين والواحد بالنوع؟ الواحد بالعين: ما لا يقبل الاشتراك، والواحد بالنوع هو: ما يقبل الاشتراك. فأنتم جعلتم الوجود واحد بالعين لا بالنوع وهذا لا يقوله عاقل، الوجود يشترك فيه أكثر من موجود.

يقول:«وَحِينَئِذٍ فَإِذَا كَانَ وُجُودُ الْمُمْكِنِ هُوَ وُجُودَ الْوَاجِبِ كَانَ وُجُودُ كُلِّ مَخْلُوقٍ يُعْدَمُ بعد وُجُودِهِ وَيُوجَدُ بَعْدَ عَدَمِهِ» بناءً على هذه القاعدة أصبح [وجود كل مخلوق يعدم بعد وجوده ويوجد بعد عدمه] وهذه قاعدة: أن المخلوق موجود من العدم ومآله للعدم.

«هُوَ نَفْسُ وُجُودِ الْحَقِّ الْقَدِيمِ الدَّائِمِ الْبَاقِي الَّذِي لَا يَقْبَلُ العدم وَإِذَا قُدِّرَ هَذَا كَانَ الْوُجُودُ الْوَاجِبُ مَوْصُوفًا بِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَتَجْسِيمٍ» أنتم الآن فررتم من التشبيه والتجسيم ووقعتم في التشبيه والتجسيم؛ لأنه سيكون كل صفة يتصف بها المخلوق يتصف بها الخالق وهذه عقيدة أهل وحدة الوجود.

يقول:«كَمَا يُصَرِّحُ بِذَلِكَ (أَهْلُ وَحْدَةِ الْوُجُودِ الَّذِينَ طَرَدُوا هَذَا الْأَصْلَ -أي عمموه- هَذَا الْأَصْلَ الْفَاسِدَ وَحِينَئِذٍ فَتَكُونُ أَقْوَالُ نفاة الصِّفَاتِ بَاطِلَةً عَلَى كُلِّ تَقْدِيرٍ» .

يقول: «وَهَذَا بَابٌ مُطَّرِدٌ فَإِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ النفاة لِمَا أَخْبَرَ بِهِ الرَّسُولُ مِنْ الصِّفَاتِ : لَا يَنْفِي شَيْئًا فِرَارًا مِمَّا هُوَ مَحْذُورٌ إلَّا وَقَدْ أَثْبَتَ مَا يَلْزَمُهُ فِيهِ نَظِيرُ مَا فَرَّ مِنْهُ»

«فَلَا بُدَّ فِي آخِرِ الْأَمْرِ مِنْ أَنْ يُثْبِتَ مَوْجُودًا وَاجِبًا قَدِيمًا مُتَّصِفًا بِصِفَاتِ تُمَيِّزُهُ عَنْ غَيْرِهِ وَلَا يَكُونُ فِيهَا مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ فَيُقَالُ لَهُ : هَكَذَا الْقَوْلُ فِي جميع الصِّفَاتِ».

«وَكُلُّ مَا تُثْبِتُهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ : فَلَا بُدَّ أَنْ يَدُلَّ عَلَى قَدْرٍ مشترك تَتَوَاطَأُ فِيهِ الْمُسَمَّيَاتُ» لا بد في أي شيء تثبته لا بد من قدر مشترك، والقدر المشترك وجوده في الذهن، فالوجود المشترك بين الخالق والمخلوق موجود بالذهن وهو ضد العدم، القدر المشترك من الحياة ضد الموت موجود في الذهن، لكن إذا وجدت في الخارج

تقيدت وتحددت، ما هي فائدة هذا القدر المشترك؟ يقول: لا بد من وجود القدر المشترك لكي نفهم الخطاب.

يقول: «وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَا فُهِمَ الْخِطَابُ» لولا القدر المشترك هذا لما فهمنا قول الله عز وجل وهو السميع البصير

«وَلَكِنْ نَعْلَمُ أَنَّ مَا اخْتَصَّ اللهُ بِهِ وَامْتَازَ عَنْ خَلْقِهِ : أَعْظَمُ مِمَّا يَخْطِرُ بِالْبَالِ أَوْ يَدُورُ فِي الْخَيَالِ» .

الأصل الثاني

يقول: «وَهَذَا يَتَبَيَّنُ (بِالْأَصْلِ الثَّانِي وَهُوَ أَنْ يُقَالَ : (الْقَوْلُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي بَعْضٍ) -.

«(الْقَوْلُ فِي الصِّفَاتِ كَالْقَوْلِ فِي الذَّاتِ) فَإِنَّ اللهَ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ . فَإِذَا كَانَ لَهُ ذَاتٌ حَقِيقَةً لَا تُمَاثِلُ الذَّوَاتَ . فَالذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِصِفَاتٍ حَقِيقَةً لَا تُمَاثِلُ سَائِرَ الصِّفَاتِ.

يقول: «فَإِذَا قَالَ السَّائِلُ : كَيْفَ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ؟» اعترض علينا المعطل أو الأشعري أو الجهمي أو المعتزلي كلهم يتفقون على نفي صفة الاستواء لله عز وجل وأهل السنة يثبتون صفة الاستواء على الوجه اللائق به سبحانه، فمن باب الاعتراض والتشغيب على أهل السنة قد يقول لك: أنت تثبت الاستواء تقول: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ نقول: نعم نثبت لله الاستواء، يقول كيف استوى؟

الجواب من جنس الاعتراض: «قِيلَ لَهُ كَمَا قَالَ رَبِيعَةُ وَمَالِكٌ وَغَيْرُهُمَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالْإِيمَانُ بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْ الْكَيْفِيَّةِ بِدْعَةٌ» الاستواء معلوم تعرفه العرمن كلامها الاستواء هو: العلو والارتفاع، والكيف كيفية الاستواء مجهولة لا يمكن أن ندركها، والإيمان بالاستواء وصفة الاستواء واجب، «وَالسُّؤَالُ عَنْ الْكَيْفِيَّةِ بِدْعَةٌ» لماذا السؤال عن الكيفية بدعة؟

قال: «لِأَنَّهُ سُؤَالٌ عَمَّا لَا يَعْلَمُهُ الْبَشَرُ وَلَا يُمْكِنُهُمْ الْإِجَابَةُ عَنْهُ» لأن كيفية الشيء متوقفة على أمور ثلاثة: إما أن تراه بنفسك أو بصورة، وإما أن ترى مثيله، وإما أن ينقل لك بخبر صادق. وكل هذا منتفي عن صفات الله عز وجل.

المحاضرة الحادية عشر للفائدة كلها

المحاضرة الثانية عشر

أما معنى الجسم في الاصطلاح :- وَأَمَّا أَهْلُ الْكَلَامِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : الْجِسْمُ هُوَ الْمَوْجُودُ - عند بعض أهل الكلام أن كل ما هو موجود فهو جسم - وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ - والجواهر المفردة كما يعرفها المناطقة هي: الجزء الذي لا يقبل التجزؤ لا بالفعل ولا بالقوة، وأصلًا عموم العقلاء يخالفونهم في وجود هذه الجواهر المفردة؛ لأن أهل العلم يقولون: أن كل شيء يمكن أن يتجزأ إلى أن يتلاشى وينتهي أو ينتقل من هذا العنصر إلى عنصر آخر - وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ الْمُرَكَّبُ مِنْ الْمَادَّةِ وَالصُّورَةِ ، وَكُلُّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ : إنَّهُ مُشَارٌ إلَيْهِ إشَارَةً حِسِّيَّةً - يقول: الجسم يمكن الإشارة إليه إشارة حسية - وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: لَيْسَ مُرَكَّبًا مِنْ هَذَا وَلَا مِنْ هَذَا بَلْ هُوَ مِمَّا يُشَارُ إلَيْهِ وَيُقَالُ: إنَّهُ هُنَا أَوْ هُنَاكَ» إذن هناك اضطراب هناك اختلاف في ضابط الروح في الاصطلاح، ولهذا لا يطلق على الروح بأنها "جسم" بالمعنى الاصطلاحي ولا ينفى عنها ذلك؛ إذ لابد من الاستفسار والاستفصال ماذا تقصد بالجسم؟ فإذا قلت: الجسم هو كل موجود، قلنا لك: الروح جسم بهذا المعنى؛ لأنها موجودة. وإذا قلت: أن الجسم هو ما يشار إليه، نقول لك: الروح هنا جسم بهذا المعنى؛ لأن الروح يمكن أن يشار إليها «فَعَلَى هَذَا إنْ كَانَتْ الرُّوحُ مِمَّا يُشَارُ إلَيْهَا وَيَتْبَعُهَا بَصَرُ الْمَيِّتِ كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أَنَّ الرُّوحَ إذَا خَرَجَتْ تَبِعَهَا الْبَصَرُ وَأَنَّهَا تُقْبَضُ وَيُعْرَجُ بِهَا إلَى السَّمَاءِ) كَانَتْ الرُّوحُ جِسْمًا بِهَذَا الِاصْطِلَاحِ»

يقول المؤلف: «وَالْمَقْصُودُ : أَنَّ الرُّوحَ إذَا كَانَتْ مَوْجُودَةً حَيَّةً عَالِمَةً قَادِرَةً سَمِيعَةً بَصِيرَةً تَصْعَدُ وَتَنْزِلُ وَتَذْهَبُ

وَتَجِيءُ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الصِّفَاتِ وَالْعُقُولُ قَاصِرَةٌ عَنْ تَكْيِيفِهَا وَتَحْدِيدِهَا لِأَنَّهُمْ لَمْ يُشَاهِدُوا لَهَا نَظِيرًا وَالشَّيْءُ إنَّمَا تُدْرَكُ حَقِيقَتُهُ بِمُشَاهَدَتِهِ أَوْ مُشَاهَدَةِ نَظِيرِهِ فَإِذَا كَانَتْ الرُّوحُ مُتَّصِفَةً بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مَعَ عَدَمِ مُمَاثَلَتِهَا لِمَا يُشَاهَدُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِمُبَايَنَتِهِ لِمَخْلُوقَاتِهِ مَعَ اتِّصَافِهِ بِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ أَسْمَائِهِ وَأَهْلُ الْعُقُولِ هُمْ أَعْجَزُ عَنْ أَنْ يَجُدُّوهُ أَوْ يُكَيِّفُوهُ مِنْهُمْ عَنْ أَنْ يَجُدُّوا الرُّوحَ أَوْ يُكَيِّفُوهَا فَإِذَا كَانَ مَنْ نَفَى صِفَاتِ الرُّوحِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا لَهَا، وَمَنْ مَثَّلَهَا بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ جَاهِلًا مُمَثِّلًا لَهَا بِغَيْرِ شَكْلِهَا ، وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ ثَابِتَةٌ بِحَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ - مُسْتَحِقَّةٌ لِمَا لَهَا مِنْ الصِّفَاتِ، فالْخَالِقُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أَوْلَى أَنْ يَكُونَ مَنْ نَفَى صِفَاتِهِ جَاحِدًا مُعَطِّلًا، وَمَنْ قَاسَهُ بِخَلْقِهِ جَاهِلًا بِهِ مُمَثِّلًا، وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثَابِتٌ بِحَقِيقَةِ الْإِثْبَاتِ مُسْتَحِقٌّ لِمَا لَهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ» فالله سبحانه وتعالى صفاته ثابتة وحقيقية وإن جحدها من جحدها أو مثّل صفاته من مثلها.

المحاضرة الثالثة عشر والربعة عشر للفائدة

الخاتمة الجامعة

يقول المؤلف: «فَصْلٌ (وَأَمَّا الْخَاتِمَةُ الْجَامِعَةُ) فَفِيهَا قَوَاعِدُ نَافِعَةٌ

المحاضرة الخامسة عشر

القاعدة الثالثة

يقول رحمه الله: «الْقَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ: إذَا قَالَ الْقَائِلُ : ظَاهِرُ النُّصُوصِ مُرَادٌ أَوْ ظَاهِرُهَا لَيْسَ بِمُرَادٍ - هذه من الألفاظ المجملة ، ظاهر النص هو : مدلول النص المفهوم بظاهره على وفق خطاب العرب، ، فهل ظاهر نصوص الكتاب والسنة هذه المعاني القريبة التي تتبادر إلى أذهاننا مباشرة إذا قرأناها ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ مباشرة تبادر إلى ذهني العلو والارتفاع ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ تبادر مباشرة إلى ذهني الصفة الحقيقية لله عز وجل هل هذا مراد؟ أو هناك معنى بعيد هو المراد وهذا الظاهر غير مراد؟

فَإِنَّهُ يُقَالُ : لَفْظُ الظَّاهِرِ فِيهِ إجْمَالٌ وَاشْتِرَاكٌ فَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَهَا التَّمْثِيلُ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ، أَوْ مَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِمْ ، فَلَا رَيْبَ أَنَّ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ وَلَكِنَّ السَّلَفَ وَالْأَئِمَّةَ لَمْ يَكُونُوا يُسَمُّونَ هَذَا ظَاهِرَهَا » التمثيل ليس هو ظاهر النصوص حاشا وكلا، لماذا؟ - وَلَا يَرْتَضُونَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ كُفْرًا وَبَاطِلًا، وهذا يستحيل - وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَأَحْكَمُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُ الَّذِي وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ لَا يَظْهَرُ مِنْهُ إلَّا مَا هُوَ كُفْرٌ أَوْ ضَلَالٌ» .

يقول المؤلف: «وَالَّذِينَ يَجْعَلُونَ ظَاهِرَهَا ذَلِكَ يَغْلَطُونَ مِنْ وَجْهَيْنِ : تَارَةً يَجْعَلُونَ الْمَعْنَى الْفَاسِدَ ظَاهِرَ اللَّفْظِ؛ حَتَّى يَجْعَلُوهُ مُحْتَاجًا إلَى تَأْوِيلٍ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ وَلَا يَكُونُ كَذَلِكَ وَتَارَةً يَرُدُّونَ الْمَعْنَى الْحَقَّ الَّذِي هُوَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ لِاعْتِقَادِهِمْ أَنَّهُ بَاطِلٌ»

الشيخ يريد أن يمثل على: من جعل ظاهر اللفظ المعنى الفاسد، ثم يقول إذًا يحتاج إلى تأويل:

يقول المؤلف: «فَالْأَوَّلُ كَمَا قَالُوا فِي قَوْلِهِ : (عَبْدِي جُعْت فَلَمْ تُطْعِمْنِي) الْحَدِيثَ وَفِي الْأَثَرِ الْآخَرِ : (الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ صَافَحَهُ أَوْ قَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ) وَقَوْلِهِ : (قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ) فَقَالُوا : قَدْ عُلِمَ أَنْ لَيْسَ فِي قُلُوبِنَا أَصَابِعُ الْحَقِّ» الآن جعلوا ظاهر قول النبي صلى الله عليه وسلم: (قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن) أن قلوب العباد مُماسة لأصابع الرحمن، قالوا: إذًا هذا النص يحتاج إلى تأويل، نرد عليهم فنقول: مفهومكم هذا خطأ ما في حاجة أصلًا تحتاجون إلى التأويل؛ لأن المفهوم الأصلي خاطئ فأنتم بنيتم باطلًا على باطل، مفهوم خاطئ وبنيتم عليه نتيجة خاطئة، أنتم جعلتم ظاهر النص هو التشبيه؛ جعلتم ظاهر النص أن القلوب مماسة لأصابع الرحمن، ثم قلتم: يحتاج إلى تأويل. «فَيُقَالُ لَهُمْ : لَوْ أَعْطَيْتُمْ النُّصُوصَ حَقَّهَا مِنْ الدَّلَالَةِ لَعَلِمْتُمْ أَنَّهَا

لَمْ تَدُلَّ إِلَّا عَلَى حَقٍّ،

أَمَّا (الحديث) فَقَوْلُهُ: (الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ يَمِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ صَافَحَهُ وَقَبَّلَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ) صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ لَيْسَ هُوَ صِفَةً لِلهِ وَلَا هُوَ نَفْسُ يَمِينِهِ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ : (يَمِينُ اللهِ فِي الْأَرْضِ) وَقَالَ: (فَمَنْ قَبَّلَهُ وَصَافَحَهُ فَكَأَنَّمَا صَافَحَ اللهَ وَقَبَّلَ يَمِينَهُ) وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشَبَّهَ لَيْسَ هُوَ الْمُشَبَّهَ بِهِ فَفِي نَفْسِ الْحَدِيثِ بَيَانُ أَنَّ مُسْتَلِمَهُ لَيْسَ مُصَافِحًا لِلهِ؛ وَأَنَّهُ لَيْسَ هُوَ نَفْسَ يَمِينِهِ فَكَيْفَ يُجْعَلُ ظَاهِرُهُ كُفْرًا لِأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى التَّأْوِيلِ . مَعَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ إِنَّمَا يُعْرَفُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ؟ أيضًا أنه مروي عن ابن عباس وفي ثبوته نظر.

- وَأَمَّا الْحَدِيثُ الْآخَرُ : فَهُوَ فِي الصَّحِيحِ مُفَسَّرًا : (يَقُولُ اللهُ عَبْدِي جُعْت فَلَمْ تُطْعِمْنِي؟ فَيَقُولُ: رَبِّ كَيْفَ أُطْعِمُك وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ : أَمَا عَلِمْت أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا جَاعَ فَلَوْ أَطْعَمْته لَوَجَدْت ذَلِكَ عِنْدِي. عَبْدِي مَرِضْت فَلَمْ تَعُدْنِي فَيَقُولُ: رَبِّ كَيْفَ أَعُودُك وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ فَيَقُولُ : أَمَا عَلِمْت أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَوْ عُدْته لَوَجَدْتنِي عِنْدَهُ) وَهَذَا صَرِيحٌ فِي أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَمْرَضْ وَلَا يَجُعْ، وَلَكِنْ مَرِضَ عَبْدُهُ وَجَاعَ عَبْدُهُ، فَجَعَلَ جُوعَهُ جُوعَهُ، وَمَرَضَهُ مَرَضَهُ، مُفَسِّرًا ذَلِكَ بِأَنَّك لَوْ أَطْعَمْته لَوَجَدْت ذَلِكَ عِنْدِي، وَلَوْ عُدْته لَوَجَدْتنِي عِنْدَهُ - لو كان نسبة الجوع لله عز وجل تعالى الله عن ذلك لقال: لو أطعمته لشبعت، فَلَمْ يَبْقَ فِي الْحَدِيثِ لَفْظٌ يَحْتَاجُ إِلَى تَأْوِيلٍ - إذًا ظاهر النص ليس فيه تشبيه وتمثيل فلا يحتاج إلى تأويل كما يزعم هؤلاء.

وَأَمَّا قَوْلُهُ: (قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ) -قالوا: ظاهر النص أن القلوب مماسة لأصابع الرحمن إذًا النص يحتاج إلى تأويل - فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي ظَاهِرِهِ أَنَّ الْقَلْبَ مُتَّصِلٌ بِالْأَصَابِعِ وَلَا مُمَاسٌّ لَهَا، وَلَا أَنَّهَا فِي جَوْفِهِ، وَلَا فِي قَوْلِ الْقَائِلِ: (هَذَا بَيْنَ يَدَيَّ) مَا يَقْتَضِي مُبَاشَرَتَهُ لِيَدَيْهِ ..

مثّل بمثال من القرآن، يقول:- وَإِذَا قِيلَ: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ لَمْ يَقْتَضِ أَنْ يَكُونَ مُمَاسًّا لِلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَنَظَائِرُ هَذَا كَثِيرَةٌ» .

يقول المؤلف: «وَمِمَّا يُشْبِهُ هَذَا الْقَوْلَ أَنْ يُجْعَلَ اللَّفْظُ نَظِيرًا لِمَا لَيْسَ مِثْلَهُ يمثل الشيخ يقول :- كَمَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ -كما في سورة ص - فَقِيلَ: هُوَ مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ - كما في سورة يس، يعني جعلوا هذه الآية نظير هذه الآية، لماذا؟ جعلوها لأجل نفي صفة اليد عن الله عز وجل، قالوا: من قال لكم أن آية ص ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ دليل على إثبات صفة اليدين لله؟ هي مثل قول الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ لينفوا عن الله صفة اليد، ا فَهَذَا لَيْسَ مِثْلَ هَذَا لِأَنَّهُ هُنَا - في يس ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ - أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَى الْأَيْدِي فَصَارَ شَبِيهًا بِقَوْلِهِ: ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ - أضاف الفعل لأيدي الناس.- وَهُنَا - سورة ص - أَضَافَ الْفِعْلَ إِلَيْهِ فَقَالَ: ﴿لِمَا خَلَقْتُ﴾ ثُمَّ قَالَ : ﴿بِيَدَيَّ﴾ - أضاف الفعل لنفسه، أما يس أضاف الفعل لليدين هذا هو الفرق الأول، ويكفي هذا الفرق أن نقول: هذه الآية ليست مماثلة لهذه الآية؛ لأنه سيذكر عدة فروق. إذًا؛ الفرق الأول أن في الآية الأولى آية يس أضاف الفعل للأيدي، وآية ص أضاف الفعل لنفسه كقوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾

الفرق الثاني: - وَأَيْضًا : فَإِنَّهُ هُنَا - في سورة ص ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ - ذَكَرَ نَفْسَهُ الْمُقَدَّسَةَ بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ - (خَلَقْتُ) وَفِي الْيَدَيْنِ ذَكَرَ لَفْظَ التَّثْنِيَةِ - (بِيَدَيَّ) بلفظ المثنى، الآن هذا الفرق الثاني والثالث - كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ - فالآية تشبه قوله عز وجل: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ لأنه ثنّى هنا اليدين.

وَهُنَاكَ أَضَافَ الْأَيْدِيَ إِلَى صِيغَةِ الْجَمْعِ - أي في سورة يس ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾ (أيدينا) ما قال: (يدي) - فَصَارَ كَقَوْلِهِ: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ ، وَهَذَا فِي

(الْجَمْعِ) نَظِيرُ قَوْلِهِ : ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ و﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ فِي (الْمُفْرَدِ) -الجمع مثل المفرد- فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَذْكُرُ نَفْسَهُ تَارَةً بِصِيغَةِ الْمُفْرَدِ مُظْهَرًا أَوْ مُضْمَرًا، وَتَارَةً بِصِيغَةِ الْجَمْعِ كَقَوْلِهِ : ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ - وَلَا يَذْكُرُ نَفْسَهُ بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ قَطُّ، لِأَنَّ صِيغَةَ الْجَمْعِ تَقْتَضِي التَّعْظِيمَ الَّذِي يَسْتَحِقُّهُ وَرُبَّمَا تَدُلُّ عَلَى مَعَانِي أَسْمَائِهِ – أي: له أكثر من اسم- وَأَمَّا صِيغَةُ التَّثْنِيَةِ فَتَدُلُّ عَلَى الْعَدَدِ الْمَحْصُورِ وَهُوَ مُقَدَّسٌ عَنْ ذَلِكَ فَلَوْ قَالَ: (ما منعك أَنْ تسجد لِمَا خَلَقْتُ يَدِي) لَكَانَ كَقَوْلِهِ : ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ و ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ - يعني لو جاءت آية ص بهذه الصيغة (لِما خلقتُ يَدِيْ) قلنا: كلامكم سليم أنها كقوله سبحانه: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ لكن؛ - وَلَوْ قَالَ: (خَلَقْتُ بيدي) بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ لَكَانَ مُفَارِقًا لَهُ - لآية يس - فَكَيْفَ إِذَا قَالَ: (خَلَقْتُ بِيَدَيَّ)؟ بِصِيغَةِ التَّثْنِيَةِ - أضاف الفعل لنفسه وبصيغة الإفراد، وثنى اليد بصيغة التثنية - هَذَا – أي: إثبات اليدين لله- مَعَ دَلَالَاتِ الْأَحَادِيثِ الْمُسْتَفِيضَةِ بَلْ الْمُتَوَاتِرَةِ وَإِجْمَاعِ السَّلَفِ عَلَى مِثْلِ مَا دَلَّ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ ، كَمَا هُوَ مَبْسُوطٌ فِي مَوْضِعِهِ - يعني يقول وإثبات اليدين لله عز وجل ليست متوقفة على ورود هذه الآية وإن كانت صريحة في إثبات اليدين فإنها ثبت لله بآيات وأحاديث أخرى- مِثْلُ قَوْلِهِ: (الْمُقْسِطُونَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وُلُّوا) وَأَمْثَالُ ذَلِكَ»

المحاضرة السادسة عشر

الكلام الآن مع الأشعري الذي يثبت بعض الصفات وينكر البعض الآخر.

يقول: «وَإِنْ كَانَ الْقَائِلُ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَ النُّصُوصِ الْمُتَنَازَعِ فِي مَعْنَاهَا -أي ماعدا الصفات السبع مثل ظاهر قول الله عز وجل ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ أو ظاهر قوله سبحانه: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أو قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ -مِنْ جِنْسِ ظَاهِرِ النُّصُوصِ الْمُتَّفَقِ عَلَى مَعْنَاهَا -أي الصفات السبع مثل ظاهر قول الله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرِ﴾ ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ظاهر هذه الآية المثبتة للعلم، - وَالظَّاهِرُ هُوَ الْمُرَادُ فِي الْجَمِيعِ - هذه جملة اعتراضية يبين المؤلف مذهب أهل السنة والجماعة أنهم يعتقدون أن ظاهر النص مراد في الجميع في الصفات السبع وما عدا الصفات السبع،- فَإِنَّ اللَّهَ لَمَّا أَخْبَرَ أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَاتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَأَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَنَّ هَذَا عَلَى ظَاهِرِهِ وَأَنَّ ظَاهِرَ ذَلِكَ مُرَادٌ كَانَ مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا بِهَذَا الظَّاهِرِ أَنْ يَكُونَ عِلْمُهُ كَعِلْمِنَا وَقُدْرَتُهُ كَقُدْرَتِنَا» .

وَكَذَلِكَ لَمَّا اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ حَيٌّ حَقِيقَةً عَالِمٌ حَقِيقَةً قَادِرٌ حَقِيقَةً - أيضا هذه الصفات الثلاث من الصفات التي يثبتها الأشاعرة ويوافقون أهل السنة على إثباتها - لَمْ يَكُنْ مُرَادُهُمْ أَنَّهُ مِثْلُ الْمَخْلُوقِ الَّذِي هُوَ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا قَالُوا فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وَقَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ - أَنَّهُ عَلَى ظَاهِرِهِ - لَمْ يَقْتَضِ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ اسْتِوَاءً كَاسْتِوَاءِ الْمَخْلُوقِ ، وَلَا حُبًّا كَحُبِّهِ ، وَلَا رِضًا كَرِضَاهُ.

يقول: «فَإِنْ كَانَ الْمُسْتَمِعُ يَظُنُّ أَنَّ ظَاهِرَ الصِّفَاتِ تُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ لَزِمَهُ أَنْ لَا يَكُونَ شَيْءٌ مِنْ ظَاهِرِ ذَلِكَ مُرَادًا وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ ظَاهِرَهَا مَا يَلِيقُ بِالْخَالِقِ وَيَخْتَصُّ بِهِ لَمْ يَكُنْ لَهُ نَفْيُ هَذَا الظَّاهِرِ وَنَفْيُ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا إِلَّا بِدَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَى النَّفْيِ ؛ وَلَيْسَ فِي الْعَقْلِ وَلَا السَّمْعِ مَا يَنْفِي هَذَا إِلَّا مِنْ جِنْسِ مَا يَنْفِي بِهِ سَائِرَ الصِّفَاتِ فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِي الْجَمِيعِ وَاحِدًا» الشاهد: الشيخ يريد أن يبين مدى تناقض هؤلاء في جعل ظاهر بعض النصوص مراد وظاهر بعض النصوص ليس بمراد، هذا هو مقصوده -رحمه الله- وبيَّن أن هذا تناقض بيِّن.

يقول المؤلف: «وَبَيَانُ هَذَا أَنَّ صِفَاتِنَا مِنْهَا مَا هِيَ أَعْيَانٌ وَأَجْسَامٌ وَهِيَ أَبْعَاضٌ لَنَا -يعني بعض من كل - كَالْوَجْهِ وَالْيَدِ - وَمِنْهَا مَا هُوَ مَعَانٍ وَأَعْرَاضٌ وَهِيَ قَائِمَةٌ بِنَا كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ» .

يقول المؤلف: «ثُمَّ إِنَّ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ الرَّبَّ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ لَمْ يَقُلْ الْمُسْلِمُونَ إِنَّ ظَاهِرَ هَذَا غَيْرُ مُرَادٍ لِأَنَّ مَفْهُومَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ مِثْلُ مَفْهُومِهِ فِي حَقِّنَا فَكَذَلِكَ لَمَّا وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ خَلَقَ آدَمَ بِيَدَيْهِ لَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ ظَاهِرُهُ غَيْرَ مُرَادٍ لِأَنَّ مَفْهُومَ ذَلِكَ فِي حَقِّهِ كَمَفْهُومِهِ فِي حَقِّنَا بَلْ صِفَةُ الْمَوْصُوفِ تُنَاسِبُهُ».

يقول المؤلف: «فَإِذَا كَانَتْ نَفْسُهُ الْمُقَدَّسَةُ لَيْسَتْ مِثْلَ ذَوَاتِ الْمَخْلُوقِينَ فَصِفَاتُهُ كَذَاتِهِ لَيْسَتْ كَصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَنِسْبَةُ صِفَةِ الْمَخْلُوقِ إِلَيْهِ كَنِسْبَةِ صِفَةِ الْخَالِقِ إِلَيْهِ وَلَيْسَ الْمَنْسُوبُ كَالْمَنْسُوبِ - بمعنى ليست صفة المخلوق كصفة الخالق-وَلَا الْمَنْسُوبُ إِلَيْهِ -أي الموصوف- كَالْمَنْسُوبِ إِلَيْهِ - ولا الخالق مثل المخلوق - كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَوْنَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) فَشَبَّهَ الرُّؤْيَةَ بِالرُّؤْيَةِ وَلَمْ يُشَبِّهْ الْمَرْئِيَّ بِالْمَرْئِيِّ»

.

القاعدة الرابعة

يقول المؤلف: «وَهَذَا يَتَبَيَّنُ بِالْقَاعِدَةِ الرَّابِعَةِ وَهُوَ أَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَتَوَهَّمُ فِي بَعْضِ الصِّفَاتِ أَوْ كَثِيرٍ مِنْهَا ؛ أَوْ أَكْثَرِهَا أَوْ كُلِّهَا أَنَّهَا تُمَاثِلُ صِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ ثُمَّ يُرِيدُ أَنْ يَنْفِيَ ذَلِكَ الَّذِي فَهِمَهُ فَيَقَعُ فِي (أَرْبَعَةِ أَنْوَاعٍ) مِنَ الْمَحَاذِيرِ :

أَحَدُهَا كَوْنُهُ مثل مَا فَهِمَهُ مِنَ النُّصُوصِ بِصِفَاتِ الْمَخْلُوقِينَ وَظَنَّ أَنَّ مَدْلُولَ النُّصُوصِ هُوَ التَّمْثِيلُ.

الثَّانِي: أَنَّهُ إِذَا جَعَلَ ذَلِكَ هُوَ مَفْهُومَهَا وَعَطَّلَهُ عطّل مدلول هذا النص؛ الضمير هنا يعود على المدلول «إِذَا جَعَلَ ذَلِكَ هُوَ مَفْهُومَهَا» أي المدلول الذي هو التمثيل، - بَقِيَتْ النُّصُوصُ مُعَطَّلَةً عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ اللَّائِقَةِ بِاللَّهِ- فَيَبْقَى مَعَ جِنَايَتِهِ عَلَى النُّصُوصِ ؛ وَظَنِّهِ السَّيِّئِ الَّذِي ظَنَّهُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ؛ - لأنه اعتقد أن الله ورسوله خاطبوا العباد بما ظاهره التمثيل، وهذا ظن سيء بالله عز وجل؛ لأن هذا فيه التلبيس، يعني اعتقد أن الله تعالى عن ذلك لبّس على الخلق عندما خاطبهم بنص ظاهره هو التمثيل. يقول: «حَيْثُ ظَنَّ أَنَّ الَّذِي يُفْهَمُ مِنْ كَلَامِهِمَا هُوَ التَّمْثِيلُ الْبَاطِلُ - يقول: مع هذا الظن السيء - قَدْ عَطَّلَ مَا أَوْدَعَ اللهُ وَرَسُولُهُ فِي كَلَامِهِمَا مِنْ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ لِلَّهِ وَالْمَعَانِي الْإِلَهِيَّةِ اللَّائِقَةِ بِجَلَالِ اللَّهِ تَعَالَى». -

الثَّالِثُ: أَنَّهُ يَنْفِي تِلْكَ الصِّفَاتِ عَنْ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِغَيْرِ عِلْمٍ ؛ فَيَكُونُ مُعَطِّلًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ الرَّبُّ.

الرَّابِعُ: أَنَّهُ يَصِفُ الرَّبَّ بِنَقِيضِ تِلْكَ الصِّفَاتِ مِنْ صِفَاتِ الْأَمْوَاتِ وَالْجَمَادَاتِ أَوْ صِفَاتِ الْمَعْدُومَاتِ».

المحاضرة السابعة عشر

يقول المؤلف: «فَيَكُونُ قَدْ عَطَّلَ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي يَسْتَحِقُّهَا وَمَثَّلَهُ بِالْمَنْقُوصَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَعَطَّلَ النُّصُوصَ عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الصِّفَاتِ وَجَعَلَ مَدْلُولَهَا هُوَ التَّمْثِيلَ بِالْمَخْلُوقَاتِ» .

يقول المؤلف: «فَيُجْمَعُ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَفِي اللَّهِ بَيْنَ التَّعْطِيلِ وَالتَّمْثِيلِ يَكُونُ مُلْحِدًا فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ»

سيمثل على وقوع الشخص المعطل في هذه المحاذير الأربعة، سيمثل لنا بمثال واقعي: -

المثال الأول: «مِثَالُ ذَلِكَ أَنَّ النُّصُوص كُلَّهَا دَلَّت عَلَى وَصْفِ الْإِلَهِ بِالْعُلُوِّ وَالْفَوْقِيَّةِ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ، وَاسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ»

يقول المؤلف: «فَأَمَّا عُلُوُّهُ وَمُبَايَنَتُهُ لِلْمَخْلُوقَاتِ فَيُعْلَمُ بِالْعَقْلِ الْمُوَافِقِ لِلسَّمْعِ؛ وَأَمَّا الِاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ فَطَرِيقُ الْعِلْمِ بِهِ هُوَ السَّمْعُ وَلَيْسَ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَصْفٌ لَهُ بِأَنَّهُ لَا دَاخِلَ الْعَالَمِ وَلَا خَارِجَهُ وَلَا مُبَايِنَهُ وَلَا مُدَاخِلَهُ».

يقول المؤلف: «فَيَظُنُّ الْمُتَوَهِّمُ أَنَّهُ إِذَا وُصِفَ بِالِاسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ كَانَ اسْتِوَاؤُهُ كَاسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى ظُهُورِ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ فَيَتَخَيَّلُ لَهُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ كَانَ مُحْتَاجًا إِلَيْهِ، كَحَاجَةِ الْمُسْتَوِي عَلَى الْفُلْكِ فَلَوْ غَرِقَتْ السَّفِينَةُ لَسَقَطَ الْمُسْتَوِي عَلَيْهَا وَلَوْ عَثَرَتْ الدَّابَّةُ لَخَرَّ الْمُسْتَوِي فَقِيَاسُ هَذَا أَنَّهُ لَوْ عَدِمَ الْعَرْشُ لَسَقَطَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ثُمَّ يُرِيد بِزَعْمِهِ أَنْ يَنْفِيَ هَذَا لَيْسَ اسْتِوَاؤُهُ بِقُعُودٍ وَلَا اسْتِقْرَارٍ - بمعنى يريد أن ينفي الاستواء الثابت لله عز وجل؛ لأنه لم يفهم من هذا الاستواء إلا ما هو ثابت للمخلوق؛ لكن لو أثبت استواءً لائقًا بالله عز وجل لما تبادر إلى ذهنه هذا الفهم الخاطئ.- وَلَا يُعْلَمُ أَنَّ مُسَمَّى الْقُعُودِ وَالِاسْتِقْرَارِ يُقَالُ فِيهِ مَا يُقَالُ فِي مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ؛ فَإِنْ كَانَتْ الْحَاجَةُ دَاخِلَةً فِي ذَلِكَ: فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الِاسْتِوَاءِ وَالْقُعُودِ وَالِاسْتِقْرَارِ، وَلَيْسَ هُوَ بِهَذَا الْمَعْنَى مُسْتَوِيًا وَلَا مُسْتَقِرًّا وَلَا قَاعِدًا، وَإِنْ لَمْ يَدْخُلْ فِي مُسَمَّى ذَلِكَ إِلَّا مَا يَدْخُلُ فِي مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ فَإِثْبَاتُ أَحَدِهِمَا وَنَفْيُ الْآخَرِ تَحَكُّمٌ» «وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ بَيْنَ مُسَمَّى الِاسْتِوَاءِ وَالِاسْتِقْرَارِ وَالْقُعُودِ فُرُوقًا مَعْرُوفَةً، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ هُنَا أَنْ يُعْلَمَ خَطَأُ مَنْ يَنْفِي الشَّيْءَ مَعَ إثْبَاتِ نَظِيرِهِ» .«وَكَانَ هَذَا الْخَطَأُ مِنْ خَطَئِهِ فِي مَفْهُومِ اسْتِوَائِهِ عَلَى الْعَرْشِ حَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ مِثْلُ اسْتِوَاءِ الْإِنْسَانِ عَلَى ظُهُورِ الْأَنْعَامِ وَلَيْسَ فِي هَذَا اللَّفْظِ مَا يَدُلُّ عَلَى ذَلِك؛ لِأَنَّهُ أَضَافَ الِاسْتِوَاءَ إلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ كَمَا أَضَافَ إلَيْهَا سَائِرَ أَفْعَالِهِ وَصِفَاتِهِ فَذَكَرَ أَنَّهُ خَلَقَ ثُمَّ اسْتَوَى كَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ قَدَّرَ فَهَدَى، وَأَنَّهُ بَنَى السَّمَاءَ بِأَيْدٍ، وَكَمَا ذَكَرَ أَنَّهُ مَعَ مُوسَى وَهَارُونَ يَسْمَعُ وَيَرَى وَأَمْثَالُ ذَلِكَ. فَلَمْ يَذْكُرْ اسْتِوَاءً مُطْلَقًا يَصْلُحُ لِلْمَخْلُوقِ، وَلَا عَامًّا يَتَنَاوَلُ الْمَخْلُوق، - بمعنى أنه لما ذكر الاستواء الذي أضافه إلى نفسه لم يذكر هذا الاستواء بإطلاق أو ذكره عامًّا يصلح للخالق والمخلوق، لا، ذكر استواءً وأضافه إلى نفسه ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾. يقول: «كَمَا لَمْ يَذْكُرْ مِثْلَ ذَلِكَ فِي سَائِرِ صِفَاتِهِ» لما ذكر صفة العلم أضافها إلى نفسه، ولهذا قلنا: أن هذا العلم ثابت لله على الوجه اللائق به سبحانه.- وَإِنَّمَا ذَكَرَ اسْتِوَاءً أَضَافَهُ إلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ»

يقول المؤلف: «فَلَوْ قُدِّرَ عَلَى وَجْهِ الْفَرْضِ الْمُمْتَنِعِ أَنَّهُ هُوَ مِثْلُ خَلْقِهِ - تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ- لَكَانَ اسْتِوَاؤُهُ مِثْلَ اسْتِوَاءِ خَلْقِهِ أَمَّا إذَا كَانَ هُوَ لَيْسَ مُمَاثِلًا لِخَلْقِهِ، بَلْ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ الْغَنِيُّ عَنْ الْخَلْقِ، وَأَنَّهُ الْخَالِقُ لِلْعَرْشِ وَلِغَيْرِهِ، وَأَنَّ كُلَّ مَا سِوَاهُ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ، وَهُوَ الْغَنِيُّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَهُوَ لَمْ يَذْكُرْ إلَّا اسْتِوَاءً يَخُصُّهُ، لَمْ يَذْكُرْ اسْتِوَاءً يَتَنَاوَلُ غَيْرَهُ وَلَا يَصْلُحُ لَهُ ، كَمَا لَمْ يَذْكُرْ فِي عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَرُؤْيَتِهِ وَسَمْعِهِ وَخَلْقِهِ إلَّا مَا يَخْتَصُّ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّهُ إذَا كَانَ مُسْتَوِيًا عَلَى الْعَرْشِ كَانَ مُحْتَاجًا إلَيْهِ وَأَنَّهُ لَوْ سَقَطَ الْعَرْشُ لَخَرَّ مَنْ عَلَيْهِ؟ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا. هَلْ هَذَا إلَّا جَهْلٌ مَحْضٌ وَضَلَالٌ مِمَّنْ فَهِمَ ذَلِكَ وَتَوَهَّمَهُ أَوْ ظَنَّهُ ظَاهِرَ اللَّفْظِ وَمَدْلُولَهُ، أَوْ جَوَّزَ ذَلِكَ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ الْغَنِيِّ عَنْ الْخَلْقِ؟ بَلْ لَوْ قُدِّرَ أَنَّ جَاهِلًا فَهِمَ مِثْلَ هَذَا أَوْ تَوَهَّمَهُ لَبُيِّنَ لَهُ أَنَّ هَذَا لَا يَجُوزُ، وَأَنَّهُ لَمْ يَدُلَّ اللَّفْظُ عَلَيْهِ أَصْلًا ،كَمَا لَمْ يَدُلَّ عَلَى نَظَائِرِهِ فِي سَائِرِ مَا وَصَفَ بِهِ الرَّبُّ نَفْسَهُ»

المثال الثاني: «فلما قَالَ سُبْحَانَه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ - أي بقوة - فَهَلْ يَتَوَهَّمُ مُتَوَهِّمٌ أَنَّ بِنَاءَهُ مِثْلُ بِنَاءِ الْآدَمِيِّ الْمُحْتَاجِ الَّذِي يَحْتَاجُ إلَى زُبُلٍ وَمَجَارِفَ وَأَعْوَانٍ وَضَرْبِ لَبِنٍ وَجَبلِ طِينٍ إلَى غَيْرِهِ؟» .

«ثُمَّ قَدْ عُلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ الْعَالَمَ بَعْضَهُ فَوْقَ بَعْضٍ» فلا يلزم من كون الشيء فوق الشيء أن يكون محتاجًا إليه، ما يلزم أن يكون الشيء فوق الشيء أن يكون الشيء العالي محتاج لما هو أسفل منه. مثال ذلك، يقول: - فَالْهَوَاءُ فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ مُفْتَقِرًا إلَى أَنْ تَحْمِلَهُ الْأَرْضُ، وَالسَّحَابُ أَيْضًا فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَ مُفْتَقِرًا إلَى أَنْ تَحْمِلَهُ وَالسَّمَوَاتُ فَوْقَ الْأَرْضِ وَلَيْسَتْ مُفْتَقِرَةً إلَى حَمْلِ الْأَرْضِ لَهَا؛ فَالْعَلِيُّ

الْأَعْلَى رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ إِذَا كَانَ فَوْقَ جَمِيعِ خَلْقِهِ كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُحْتَاجًا إِلَى خَلْقِهِ أَوْ عَرْشِهِ؟ كَيْفَ يَسْتَلْزِمُ عُلُوُّهُ عَلَى خَلْقِهِ هَذَا الِافْتِقَارَ وَهُوَ لَيْسَ بِمُسْتَلْزَمٍ فِي الْمَخْلُوقَاتِ؟ وَقَدْ عُلِمَ أَنَّ مَا ثَبَتَ لِمَخْلُوقٍ مِنْ الْغِنَى عَنْ غَيْرِهِ فَالْخَالِقُ سُبْحَانَهُ أَحَقُّ بِهِ

مثال ثالث: «وَكَذَلِكَ قَوْلُه: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ مُقْتَضَى هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ فِي دَاخِلِ السَّمَوَاتِ فَهُوَ جَاهِلٌ ضَالٌّ بِالِاتِّفَاقِ وَإِنْ كُنَّا إِذَا قُلْنَا : إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فِي السَّمَاءِ يَقْتَضِي ذَلِكَ - هذه مسألة خلافية، الشيخ ذهب إلى ما ذهب إليه أكثر المفسرين من أن الشمس والقمر داخل السموات والأرض؛ لأنه يقول: «وَإِنْ كُنَّا إِذَا قُلْنَا: إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ فِي السَّمَاءِ» فَإِنَّ حَرْفَ (فِي) مُتَعَلِّقٌ بِمَا قَبْلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَهُوَ بِحَسَبِ الْمُضَافِ إِلَيْهِ» بمعنى أن (في) حرف جر له أكثر من معنى، ونحن نعرف في لغة العرب والتي جاء القرآن بها أن حروف الجر ينوب بعضها عن بعض، وتأتي أحيانًا بمعانٍ متعددة، الذي يحدد المعنى المراد سياق الكلام.

المحاضرة الثامنة عشر

«وَلِهَذَا يُفَرَّقُ بَيْنَ كَوْنِ الشَّيْءِ فِي الْمَكَانِ، وَكَوْنِ الْجِسْمِ فِي الْحَيِّزِ، وَكَوْنِ الْعَرَضِ فِي الْجِسْمِ، وَكَوْنِ الْوَجْهِ فِي الْمِرْآةِ، وَكَوْنِ الْكَلَامِ فِي الْوَرَقِ - (فكون الشيء في المكان) مثلًا: كون زيد في البيت بمعنى هذا أنه يتسع له ولغيره، ، (وكون الجسم في الحيز) بمعنى أن الجسم شغل جميع الفراغ ، و (العرَض في الجسم) أي: العرَض قائم بالجس، و(الوجه في المرآة)، ، صورة الوجه في المرآة، (الكلام في الورق) معناه أن رسمه في الورق -

فَإِنَّ لِكُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ خَاصِّيَّةً يَتَمَيَّزُ بِهَا عَنْ غَيْرِهِ وَإِنْ كَانَ حَرْفُ (فِي) مُسْتَعْمَلًا فِي ذَلِكَ كُلِّهِ فَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: الْعَرْشُ فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ؟ لَقِيلَ فِي السَّمَاءِ، وَلَوْ قِيلَ: الْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ أَمْ فِي الْأَرْضِ؟ لَقِيلَ الْجَنَّةُ فِي السَّمَاءِ؛ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ دَاخِلَ السَّمَوَاتِ بَلْ وَلَا الْجَنَّةُ وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (إِذَا سَأَلْتُمْ اللَّهَ الْجَنَّةَ فَاسْأَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهَا أَعْلَى الْجَنَّةِ وَوَسَطُ الْجَنَّةِ وَسَقْفُهَا عَرْشُ الرَّحْمَنِ) فَهَذِهِ الْجَنَّةُ سَقْفُهَا الَّذِي هُوَ الْعَرْشُ فَوْقَ الْأَفْلَاكِ. مَعَ أَنَّ الْجَنَّةَ فِي السَّمَاءِ وَالسَّمَاءُ يُرَادُ بِهِ (الْعُلُوُّ) سَوَاءٌ كَانَ فَوْقَ الْأَفْلَاكِ أَوْ تَحْتَهَا باختصار نحن نوجز الكلام على ما سيذكره المؤلف:

إما أن نحمل (في) على ظاهرها ويكون السماء هنا معناه (العلو) وهذا ثابت في لغة العرب، فيكون معنى قوله: ﴿أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أأمنتم من في العلو.

يقول المؤلف: «وَلَمَّا كَانَ قَدْ اسْتَقَرَّ فِي نُفُوسِ الْمُخَاطَبِينَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى؛ وَأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ كَانَ الْمَفْهُومُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ أَنَّهُ فِي السَّمَاءِ أَنَّهُ فِي الْعُلُوِّ وَأَنَّهُ فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ وَكَذَلِكَ الْجَارِيَةُ لَمَّا قَالَ لَهَا: أَيْنَ اللَّهُ؟ قَالَتْ: فِي السَّمَاءِ، إنَّمَا أَرَادَتْ الْعُلُوَّ، مَعَ عَدَمِ تَخْصِيصِهِ بِالْأَجْسَامِ الْمَخْلُوقَةِ وَحُلُولِهِ فِيهَا وَإِذَا قِيلَ: الْعُلُوُّ فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ مَا فَوْقَ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا، فَمَا فَوْقَهَا كُلَّهَا هُوَ فِي السَّمَاءِ، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ ظَرْفٌ وُجُودِيٌّ يُحِيطُ بِهِ، إذْ لَيْسَ فَوْقَ الْعَالَمِ شَيْءٌ مَوْجُودٌ إلَّا اللَّهُ، كَمَا لَوْ قِيلَ: الْعَرْشُ فِي السَّمَاءِ، فَإِنَّهُ لَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْعَرْشُ فِي شَيْءٍ آخَرَ مَوْجُودٌ مَخْلُوقٌ

الاحتمال الأول: أن نُجري (في) على بابها، ونقول معنى السماء (العلو) كما هو معهود في لغة العرب.

الاحتمال الثاني:- وَإِذَا قُدِّرَ أَنَّ السَّمَاءَ الْمُرَادُ بِهَا الْأَفْلَاكُ كَانَ الْمُرَادُ إنَّهُ عَلَيْهَا، كَمَا قَالَ: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ .وقوله: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَكَمَا قَالَ : ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ وَيُقَالُ : فُلَانٌ فِي الْجَبَلِ وَفِي السَّطْحِ وَإِنْ كَانَ عَلَى أَعْلَى شَيْءٍ فِيهِ»

القاعدة الخامسة

قال المؤلف: «الْقَاعِدَةُ الْخَامِسَةُ أَنَّا نَعْلَمُ مَا أُخْبِرْنَا بِهِ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ

سيدلل على النوعين: -

فإن الله قَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وَقَالَ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ وَقَالَ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ وَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ فَأَمَرَ بِتَدَبُّرِ الْكِتَابِ كُلِّهِ – _ – لمّا أمرنا بتدبر كلامه دون أن يستثني من ذلك شيء، ، إذا أمرنا الله بالتدبر فهذا دليل على أنه معلوم، إذ ليس من اللائق أن نؤمر بتدبر كلام لا نفهم معناه . وهذه القاعدة هي رد على المفوضة، كما أن جزءًا منها رد على أهل التأويل.-

وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ الآية» – **هذه الآية دليل على الشق الثاني وهو دون وجه.** نعلم ما أخبرنا الله به من وجه؛ لكن دون وجه.

هذه الآية فيها قراءتان: قراءة الجمهور الوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ أي وما يعلم تأويل المتشابه إلا الله. **يقول المؤلف:** «وَجُمْهُورُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَخَلَفِهَا عَلَى أَنَّ الْوَقْفَ عِنْدَ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ وَهَذَا هُوَ الْمَأْثُورُ عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمْ، – كعائشة -رضي الله عنها- وعروة بن الزبير والحسن البصري والضحاك ومالك ونافع ويعقوب والكسائي والأخفش والفراء وسهل بن محمد وأبو عبيد وعمر بن عبد العزيز، فكل هؤلاء قرأوا بالوقف على لفظ الجلالة.- وَرُوِيَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:- التَّفْسِيرُ عَلَى أَرْبَعَةِ أَوْجُهٍ: تَفْسِيرٌ تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ كَلَامِهَا – وَتَفْسِيرٌ لَا يُعْذَرُ أَحَدٌ بِجَهَالَتِهِ وَتَفْسِيرٌ يَعْلَمُهُ الْعُلَمَاءُ وَتَفْسِيرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ مَنْ ادَّعَى عِلْمَهُ فَهُوَ كَاذِبٌ» وهذا هو الشاهد من هذا الأثر.

المحاضرة التاسعة عشر

يقول المؤلف: «وَقَدْ رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ وَطَائِفَةٍ أَنَّ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ تَأْوِيلَهُ وَقَدْ قَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَضْت الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ فَاتِحَتِهِ إلَى خَاتِمَتِهِ أَقِفُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ عَنْ تَفْسِيرِهَا» الشاهد من إيراد المؤلف لهذا الأثر : أن مجاهد سأل ابن عباس عن تفسير كل القرآن، بمعنى أن جميع ما في القرآن مفهوم المعنى، ليس هناك في القرآن ما لا يُفهم معناه.«وَلَا مُنَافَاةَ بَيْنَ الْقَوْلَيْنِ عِنْدَ التَّحْقِيقِ فَإِنَّ لَفْظَ (التَّأْوِيلِ) قَدْ صَارَ بِتَعَدُّدِ الِاصْطِلَاحَاتِ مُسْتَعْمَلًا فِي ثَلَاثَةِ مَعَانٍ:-

أَحَدُهَا – وَهُوَ اصْطِلَاحُ كَثِيرٍ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْفِقْهِ وَأُصُولِهِ :- وهذا ليس له مستند لا في الكتاب ولا في السنة ولا في لغة العرب، أَنَّ التَّأْوِيلَ هُوَ صَرْفُ اللَّفْظِ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ؛ لِدَلِيلِ يَقْتَرِنُ بِهِ وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَنَاهُ أَكْثَرُ مَنْ تَكَلَّمَ مِنْ الْمُتَأَخِّرِينَ فِي تَأْوِيلِ نُصُوصِ الصِّفَاتِ وَتَرْكِ تَأْوِيلِهَا؛ وَهَلْ هَذَا مَحْمُودٌ أَوْ مَذْمُومٌ وَحَقٌّ أَوْ بَاطِلٌ؟ – ترك الشيخ الجواب؛ لأنه ليس هذا مكان بحث هذه المسألة.

ولكن إن كان الدليل الذي اقترن به حق فالتأويل حق، ويكون محمودًا، وإن كان الدليل الذي صُرِف اللفظ عن ظاهره بسببه إلى المعنى البعيد كان هذا الدليل ليس بصحيح فهذا التأويل يعتبر مذموم وباطل. -

وَالثَّانِي: أَنَّ التَّأْوِيلَ بِمَعْنَى التَّفْسِيرِ – ، لاحظوا؛ الثاني والثالث هو التأويل الشرعي، – وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ عَلَى اصْطِلَاحِ مُفَسِّرِي الْقُرْآنِ – كَمَا يَقُولُ ابْنُ جَرِيرٍ وَأَمْثَالُهُ مِنْ الْمُصَنِّفِينَ فِي التَّفْسِيرِ : (وَاخْتَلَفَ عُلَمَاءُ التَّأْوِيلِ) وَمُجَاهِدٌ إمَامُ الْمُفَسِّرِينَ؛ – قَالَ الثَّوْرِيُّ: (إذَا جَاءَك التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُك بِهِ) وَعَلَى تَفْسِيرِهِ يَعْتَمِدُ الشَّافِعِيُّ وَأَحْمَدُ ابْنُ حَنْبَلَ وَالْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُمْ- فَإِذَا ذَكَرَ أَنَّهُ يَعْلَمُ تَأْوِيلَ الْمُتَشَابِهِ فَالْمُرَادُ بِهِ مَعْرِفَةُ تَفْسِيرِهِ:

الثَّالِثُ مِنْ مَعَانِي التَّأْوِيلِ: هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي يَؤُولُ إلَيْهَا الْكَلَامُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ

يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ فَتَأْوِيلُ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ أَخْبَارِ الْمَعَادِ هُوَ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِيهِ مِمَّا يَكُونُ مِنْ الْقِيَامَةِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ وَنَحْوِ ذَلِكَ كَمَا فِي قِصَّةِ يُوسُفَ لَمَّا سَجَدَ أَبَوَاهُ وَإِخْوَتُهُ وَقَالَ: ﴿يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ فَجَعَلَ عَيْنَ مَا وُجِدَ فِي الْخَارِجِ هُوَ تَأْوِيلَ الرُّؤْيَا

يقول «فَالتَّأْوِيلُ الثَّانِي: هُوَ تَفْسِيرُ الْكَلَامِ، وَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي يُفَسَّرُ بِهِ اللَّفْظُ حَتَّى يُفْهَمَ مَعْنَاهُ، أَوْ تُعْرَفَ عِلَّتُهُ أَوْ دَلِيلُهُ -

وَهَذَا التَّأْوِيلُ الثَّالِثُ هُوَ عَيْنُ مَا هُوَ مَوْجُودٌ فِي الْخَارِجِ وَمِنْهُ قَوْلُ عَائِشَةَ -رضي الله عنها-: (كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي) يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ تعْنِي قَوْلَهُ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾ وَقَوْلُ سُفْيَانَ بْنِ عيينة: السُّنَّةُ هِيَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فَإِنَّ نَفْسَ الْفِعْلِ الْمَأْمُورِ بِهِ هُوَ تَأْوِيلُ الْأَمْرِ بِهِ وَنَفْسَ الْمَوْجُودِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ هُوَ تَأْوِيلُ الْخَبَرِ»

وَالْكَلَامُ خَبَرٌ وَأَمْرٌ وَلِهَذَا يَقُولُ أَبُو عُبَيْدٍ وَغَيْرُهُ: (الْفُقَهَاءُ أَعْلَمُ بِالتَّأْوِيلِ مِنْ أَهْلِ اللُّغَةِ) فإذا أمرنا الله -عز وجل- بالصلاة، الصلاة عند أهل اللغة معناها الدعاء؛ لكن عند الفقهاء أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم، فالفقهاء أعلم بتأويل المعنى الشرعي أو الأمر الشرعي في القرآن والسنة.- كَمَا ذَكَرُوا ذَلِكَ فِي تَفْسِيرِ اشْتِمَالِ الصَّمَّاءِ - اشتمال الصمّاء عند أهل اللغة أن يلف الإنسان على نفسه ثوبًا ويجعل يديه من الداخل بحيث لا يكون له منفذًا، أخذوا هذا من الصمم وهو انسداد الأذن، الفقهاء قالوا: أن يلتحف الإنسان بالثوب الواحد يجعل طرفيه على عاتقيه، ثوب واحد يجعله على عاتقيه - لِأَنَّ الْفُقَهَاءَ يَعْلَمُونَ نَفْسَ مَا أُمِرَ بِهِ وَنَفْسَ مَا نَهَى عَنْهُ ؛ لِعِلْمِهِمْ بِمَقَاصِدِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا يَعْلَمُ أَتْبَاعُ بُقْرَاط وَسِيبَوَيْهِ وَنَحْوِهِمَا مِنْ مَقَاصِدِهِمَا مَا لَا يُعْلَمُ بِمُجَرَّدِ اللُّغَةِ؛ وَلَكِنَّ تَأْوِيلَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَتِهِ، بِخِلَافِ تَأْوِيلِ الْخَبَرِ».

المحاضرة العشرون

ثم قال المؤلف: «إذَا عُرِفَ ذَلِكَ؛ فَتَأْوِيلُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ الْغَنِيَّةِ بِمَا لَهَا مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، هُوَ حَقِيقَةُ نَفْسِهِ الْمُقَدَّسَةِ، الْمُتَّصِفَةِ بِمَا لَهَا مِنْ حَقَائِقِ الصِّفَاتِ، وَتَأْوِيلِ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ هُوَ نَفْسُ مَا يَكُونُ مِنْ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَلِهَذَا مَا يَجِيءُ فِي الْحَدِيثِ نَعْمَلُ بِمُحْكَمِهِ وَنُؤْمِنُ بِمُتَشَابِهِهِ؛ لِأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَعَنْ الْيَوْمِ الْآخِرِ فِيهِ أَلْفَاظٌ مُتَشَابِهَةٌ تُشْبِهُ مَعَانِيهَا مَا نَعْلَمُهُ فِي الدُّنْيَا، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّ فِي الْجَنَّةِ لَحْمًا وَلَبَنًا، وَعَسَلًا وَمَاءً وَخَمْرًا وَنَحْوَ ذَلِكَ، وَهَذَا يُشْبِهُ مَا فِي الدُّنْيَا لَفْظًا وَمَعْنًى؛ وَلَكِنْ لَيْسَ هُوَ مِثْلَهُ وَلَا حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَتِهِ

فَأَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتُهُ أَوْلَى، وَإِنْ كَانَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ أَسْمَاءِ الْعِبَادِ وَصِفَاتِهِمْ تَشَابُهٌ - في المعنى العام، في المعنى الكلي - أَنْ لَا يَكُونَ لِأَجْلِهَا الْخَالِقُ مِثْلَ الْمَخْلُوقِ، وَلَا حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَتِهِ. وَالْإِخْبَارُ عَنْ الْغَائِبِ لَا يُفْهَمُ إنْ لَمْ يُعَبَّرْ عَنْهُ بِالْأَسْمَاءِ الْمَعْلُومَةِ مَعَانِيهَا فِي الشَّاهِدِ، وَيُعْلَمُ بِهَا مَا فِي الْغَائِبِ بِوَاسِطَةِ الْعِلْمِ بِمَا فِي الشَّاهِدِ؛ مَعَ الْعِلْمِ بِالْفَارِقِ الْمُمَيِّزِ، وَأَنَّ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ الْغَيْبِ أَعْظَمُ مِمَّا يُعْلَمُ فِي الشَّاهِدِ

يقول: «وَفِي الْغَائِبِ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ» وهذا جاء في الحديث الصحيح كما في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة

فَنَحْنُ إذَا أَخْبَرَنَا اللَّهُ بِالْغَيْبِ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ مِنْ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ عَلِمْنَا مَعْنَى ذَلِكَ وَفَهِمْنَا مَا أُرِيدَ مِنَّا فَهْمُهُ بِذَلِكَ الْخِطَابِ وَفَسَّرْنَا ذَلِكَ وَأَمَّا نَفْسُ الْحَقِيقَةِ الْمُخْبَرِ عَنْهَا مِثْلَ الَّتِي لَمْ تَكُنْ بَعْدُ إنَّمَا تَكُونُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَذَلِكَ مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللَّهُ وَلِهَذَا لَمَّا سُئِلَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ مِنْ السَّلَفِ عَنْ قَوْله تَعَالَى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قَالُوا: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ وَالْإِيمَانُ

بِهِ وَاجِبٌ وَالسُّؤَالُ عَنْهُ بِدْعَةٌ.

وَكَذَلِكَ قَالَ رَبِيعَةُ شَيْخُ مَالِكٍ قَبْلَهُ: الِاسْتِوَاءُ مَعْلُومٌ، وَالْكَيْفُ مَجْهُولٌ، وَمِنْ اللهِ الْبَيَانُ، وَعَلَى الرَّسُولِ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْإِيمَانُ فَبَيَّنَ أَنَّ الِاسْتِوَاءَ مَعْلُومٌ وَأَنَّ كَيْفِيَّةَ ذَلِكَ مَجْهُولَةٌ»

يقول المؤلف: «وَمِثْلُ هَذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي كَلَامِ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةُ، يَنْفُونَ عِلْمَ الْعِبَادِ بِكَيْفِيَّةِ صِفَاتِ اللهِ، وَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ اللهُ إِلَّا اللهُ ، فَلَا يَعْلَمُ مَا هُوَ إِلَّا هُوَ- سبحانه وتعالى- وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: (لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْك أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْت عَلَى نَفْسِك) وَهَذَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَغَيْرِهِ، وَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الْآخَرِ: (اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُك بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَك سَمَّيْت بِهِ نَفْسَك أَوْ أَنْزَلْته فِي كِتَابِك أَوْ عَلَّمْته أَحَدًا مَنْ خَلْقِك أَوْ اسْتَأْثَرْت بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَك) وَهَذَا الْحَدِيثُ فِي الْمُسْنَدِ وَصَحِيحِ أَبِي حَاتِمٍ وَقَدْ أَخْبَرَ فِيهِ أَنَّ لِلَّهِ مِنْ الْأَسْمَاءِ مَا اسْتَأْثَرَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ فَمَعَانِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِهَا فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ لَا يَعْلَمُهَا غَيْرُهُ»

الشيء الذي أخبرنا الله به نعلم معناه؛ لكن كيفيته وحقيقته الله أعلم، وما استأثر الله بعلمه لا نعلم معناه ولا كيفيته.

يقول المؤلف: «وَاَللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَخْبَرَنَا أَنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ غَفُورٌ رَحِيمٌ؛ إلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ. فَنَحْنُ نَفْهَمُ مَعْنَى ذَلِكَ وَنُمَيِّزُ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَبَيْنَ الرَّحْمَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ، وَنَعْلَمُ أَنَّ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا اتَّفَقَتْ فِي دَلَالَتِهَا عَلَى ذَاتِ اللهِ مَعَ تَنَوُّعِ مَعَانِيهَا - فَهِيَ – أي: الأسماء - مُتَّفِقَةٌ مُتَوَاطِئَةٌ مِنْ حَيْثُ الذَّاتُ مُتَبَايِنَةٌ مِنْ جِهَةِ الصِّفَاتِ -

وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلُ: مُحَمَّدٍ وَأَحْمَدَ وَالْمَاحِي وَالْحَاشِرِ وَالْعَاقِبِ. وَكَذَلِكَ أَسْمَاءُ الْقُرْآنِ مِثْلُ: الْقُرْآنِ وَالْفُرْقَانِ وَالْهُدَى وَالنُّورِ وَالتَّنْزِيلِ وَالشِّفَاءِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمِثْلُ هَذِهِ الْأَسْمَاءِ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيهَا هَلْ هِيَ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَرَادِفَةِ -لِاتِّحَادِ الذَّاتِ- أَوْ مِنْ قَبِيلِ الْمُتَبَايِنَةِ لِتَعَدُّدِ الصِّفَاتِ؟

الترادف: اختلاف اللفظ واتحاد المعنى؛ كالأسد والليث، ، أما المتباينة فهي اختلاف اللفظ والمعنى، -

كَمَا إذَا قِيلَ: السَّيْفُ وَالصَّارِمُ وَالْمُهَنَّدُ وَقُصِدَ بِالصَّارِمِ مَعْنَى الصَّرْمِ وَفِي الْمُهَنَّدِ النِّسْبَةُ إلَى الْهِنْدِ؛ وَالتَّحْقِيقُ أَنَّهَا مُتَرَادِفَةٌ فِي الذَّاتِ مُتَبَايِنَةٌ فِي الصِّفَاتِ»

يقول المؤلف: «وَمِمَّا يُوَضِّحُ هَذَا أَنَّ اللهَ وَصَفَ الْقُرْآنَ كُلَّهُ بِأَنَّهُ مُحْكَمٌ وَبِأَنَّهُ مُتَشَابِهٌ، وَفِي مَوْضِعٍ آخَرَ جَعَلَ مِنْهُ مَا هُوَ مُحْكَمٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مُتَشَابِهٌ، فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْرَفَ الْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ؛ وَالْإِحْكَامُ وَالتَّشَابُهُ الَّذِي يَخُصُّ بَعْضَهُ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ أَحْكَمَ آيَاتِهِ كُلَّهَا، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ فَأَخْبَرَ أَنَّهُ كُلَّهُ مُتَشَابِهٌ

وَالْحُكْمُ: هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ - هذا معنى الحكم في اللغة - فَالْحَاكِمُ يَفْصِلُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ، وَالْحُكْمُ فَصْلٌ بَيْنَ الْمُتَشَابِهَاتِ عِلْمًا وَعَمَلًا ، إذَا مُيِّزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ فِعْلَ النَّافِعِ وَتَرْكَ الضَّارِّ، فَيُقَالُ: حَكَمْت السَّفِيهَ وَأَحْكَمْته، إذَا أَخَذْت عَلَى يَدِهِ، وَحَكَمْت الدَّابَّةَ وَأَحْكَمْتهَا ، إذَا جَعَلْت لَهَا حَكَمَةً وَهُوَ مَا أَحَاطَ بِالْحَنَكِ مِنْ اللِّجَامِ، وَإِحْكَامُ الشَّيْءِ إتْقَانُهُ؛ فَإِحْكَامُ الْكَلَامِ إتْقَانُهُ بِتَمْيِيزِ الصِّدْقِ مِنْ الْكَذِبِ فِي أَخْبَارِهِ، وَتَمْيِيزِ الرُّشْدِ مِنْ الْغَيِّ فِي أَوَامِرِهِ

أما في الاصطلاح: فهو إحكام الكلام وإتقانه بحيث يتميز الصدق فيه من الكذب -هذا ما يتعلق في الأخبار- ويتميز الرشد من الغي في الأوامر.

فالقرآن بهذا المعنى كله محكم متقن ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ أي أُتقِنت آياته، ليس فيه كذب، ليس فيه غي، ولذلك سماه الله عز وجل - فَقَدْ سَمَّاهُ اللهُ حَكِيمًا بِقَوْلِهِ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾

فَالْحَكِيمُ بِمَعْنَى الْحَاكِمِ، كَمَا جَعَلَهُ يَقُصُّ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ ، وَجَعَلَهُ مُفْتِيًا فِي قَوْلِهِ: ﴿قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾ أَيْ: مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ، وَجَعَلَهُ هَادِيًا وَمُبَشِّرًا فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ - إذن القرآن كله محكم،

ما معنى الإحكام العام؟

الإحكام العام: هو الإتقان، فهو مطرد في بلاغته وانتظامه في سلك الفصاحة، ومستوٍ في أجزاء كلماته في أداء المعنى من غير حشوٍ يُستغنى عنه أو نقصان يُخلّ به، وألفاظه وأحكامه ومعانيه متقنة بألفاظ ظاهرة بيّنة لا خلل فيها بوجه من الوجوه.

ما معنى التشابه العام؟ -

وَأَمَّا التَّشَابُهُ الَّذِي يَعُمُّهُ فَهُوَ ضِدُّ الِاخْتِلَافِ الْمَنْفِيِّ عَنْهُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ وَهُوَ الِاخْتِلَافُ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ فَالتَّشَابُهُ هُنَا -أي العام- هُوَ تَمَاثُلُ الْكَلَامِ وَتَنَاسُبُهُ بِحَيْثُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا فَإِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ لَمْ يَأْمُرْ بِنَقِيضِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بَلْ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ بِنَظِيرِهِ أَوْ بِمَلْزُومَاتِهِ؛ وَإِذَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ؛ بَلْ يَنْهَى عَنْهُ أَوْ يَنْهَى عَنْ نَظِيرِهِ أَوْ عَنْ لَوَازِمِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ نَسْخٌ»

إذن؛ نخلُص إلى نتيجة كلية: أن الإحكام العام هو الإتقان العام الذي وُصِف به القرآن،

وأن التشابه العام الذي وُصِف به القرآن هو تماثل الكلام وتناسبه بحيث يُصَدِّق بعضه بعضًا.

المحاضرة الحادية والعشرون

«وأَمَّا التشابه- الذي يعمُّه فمعناه - هُوَ تَمَاثُلُ الْكَلَامِ وَتَنَاسُبُهُ: بِحَيْثُ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا ؛ فَإِذَا أَمَرَ بِأَمْرٍ لَمْ يَأْمُرْ بِنَقِيضِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ ؛ بَلْ يَأْمُرُ بِهِ أَوْ بِنَظِيرِهِ أَوْ بِمَلْزُومَاتِهِ ؛ وَإِذَا نَهَى عَنْ شَيْءٍ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ بَلْ يَنْهَى عَنْهُ أَوْ عَنْ نَظِيرِهِ أَوْ عَنْ مَلْزُومَاتِهِ»

«وَكَذَلِكَ إِذَا أَخْبَرَ بِثُبُوتِ شَيْءٍ لَمْ يُخْبِرْ بِنَقِيضِ ذَلِكَ. بَلْ يُخْبِرُ بِثُبُوتِهِ أَوْ بِثُبُوتِ مَلْزُومَاتِهِ وَإِذَا أَخْبَرَ بِنَفْيِ شَيْءٍ لَمْ يُثْبِتْهُ بَلْ يَنْفِيهِ أَوْ يَنْفِي لَوَازِمَهُ»

«بِخِلَافِ الْكَلَامِ الْمُتَنَاقِضِ الَّذِي يُضَادُّ بَعْضُهُ بَعْضًا فَيُثْبِتُ الشَّيْءَ تَارَةً وَيَنْفِيهِ أُخْرَى أَوْ يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ فَيَمْدَحُ أَحَدَهُمَا وَيَذُمُّ الْآخَرَ فَالْأَقْوَالُ الْمُخْتَلِفَةُ هُنَا: هِيَ الْمُتَضَادَّةُ. وَالْمُتَشَابِهَةُ: هِيَ الْمُتَوَافِقَةُ» .

«وَهَذَا التَّشَابُهُ يَكُونُ فِي الْمَعَانِي وَإِنْ اخْتَلَفَتْ الْأَلْفَاظُ» يعني التشابه الموصوف به القرآن هنا لا يلزم أن يكون في الألفاظ لكن هو متشابه في معانيه وإن اختلفت ألفاظه.

«فَإِذَا كَانَتْ الْمَعَانِي يُوَافِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيُعَضِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيُنَاسِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا وَيَشْهَدُ بَعْضُهَا لِبَعْضِ وَيَقْتَضِي بَعْضُهَا بَعْضًا : كَانَ الْكَلَامُ مُتَشَابِهًا - بِخِلَافِ الْكَلَامِ الْمُتَنَاقِضِ الَّذِي يُضَادُّ بَعْضُهُ بَعْضًا - » .

«فَهَذَا التَّشَابُهُ الْعَامُّ : لَا يُنَافِي الْإِحْكَامَ الْعَامَّ ، الْكَلَامَ الْمُحْكَمَ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا لَا يُنَاقِضُ بَعْضُهُ بَعْضًا»

«بِخِلَافِ الْإِحْكَامِ الْخَاصِّ ؛ فَإِنَّهُ ضِدُّ التَّشَابُهِ الْخَاصِّ

العلاقة بين الإحكام الخاص والتشابه الخاص:

الإحكام الخاص مُناقِض للتشابه الخاص ولهذا ما جعل الله عز وجل أن القرآن كله محكم إحكام خاص أو متشابه تشابه خاص قال: لا، ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾

«وَالتَّشَابُهُ الْخَاصُّ مُشَابَهَةُ الشَّيْءِ لِغَيْرِهِ مِنْ وَجْهٍ مَعَ مُخَالَفَتِهِ لَهُ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ إنَّهُ هُوَ أَوْ هُوَ مِثْلُهُ وَلَيْسَ كَذَلِكَ»

ولهذا قال الله عز وجل عما في الجنَّة: ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾ اشتبه عليهم، ظنُّوا أنه مثل الذي في الدنيا؛ لكن تبيَّن أنَّ الحقيقة مخالفة تمامًا.

«وَالْإِحْكَامُ -أي الإحكام الخاص - هُوَ الْفَصْلُ بَيْنَهُمَا

بِحَيْثُ لَا يَشْتَبِهُ أَحَدُهُمَا بِالْآخَرِ وَهَذَا التَّشَابُهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِقَدْرٍ مُشْتَرَكٍ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ مَعَ وُجُودِ الْفَاصِلِ بَيْنَهُمَا»

«ثُمَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ لَا يَهْتَدِي لِلْفَصْلِ بَيْنَهُمَا وَمِنْهُمْ مَنْ يَهْتَدِي إلَى ذَلِكَ ؛ فَالتَّشَابُهُ الَّذِي لَا يَتَمَيَّزُ مَعَهُ قَدْ يَكُونُ مِنْ الْأُمُورِ النِّسْبِيَّةِ» .

«بِحَيْثُ يَشْتَبِهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ وَمِثْلُ هَذَا يَعْرِفُ مِنْهُ أَهْلُ الْعِلْمِ مَا يُزِيلُ عَنْهُمْ هَذَا الِاشْتِبَاهَ كَمَا إذَا اشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ مَا وُعِدُوا بِهِ فِي الْآخِرَةِ بِمَا يَشْهَدُونَهُ فِي الدُّنْيَا فَظَنَّ أَنَّهُ مِثْلُهُ فَعَلِمَ الْعُلَمَاءُ أَنَّهُ لَيْسَ مِثْلَهُ وَإِنْ كَانَ مُشْبِهًا لَهُ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ الشُّبَهُ الَّتِي يَضِلُّ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ وَهِيَ مَا يَشْتَبِهُ فِيهَا الْحَقُّ وَالْبَاطِلُ»

«وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ إنَّمَا هُوَ مِنْ بَابِ الشُّبُهَاتِ لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ لِلشَّيْءِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ بِمَا لَا يُشْبِهُهُ فِيهِ فَمَنْ عَرَفَ الْفَصْلَ بَيْنَ الشَّيْئَيْنِ: اهْتَدَى لِلْفَرْقِ الَّذِي يَزُولُ بِهِ الِاشْتِبَاهُ وَالْقِيَاسُ الْفَاسِدُ وَمَا مِنْ شَيْئَيْنِ إلَّا وَيَجْتَمِعَانِ فِي شَيْءٍ وَيَفْتَرِقَانِ فِي شَيْءٍ فَبَيْنَهُمَا اشْتِبَاهٌ مِنْ وَجْهٍ وَافْتِرَاقٌ مِنْ وَجْهٍ وَلِهَذَا كَانَ ضَلَالُ بَنِي آدَمَ مِنْ قِبَلِ التَّشَابُهِ» المقصود بالتشابه الخاص وليس التشابه العام.

«وَالْقِيَاسِ الْفَاسِدِ لَا يَنْضَبِطُ كَمَا قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ : أَكْثَرُ مَا يُخْطِئُ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّأْوِيلِ وَالْقِيَاسِ ؛ فَالتَّأْوِيلُ: فِي الْأَدِلَّةِ السَّمْعِيَّةِ ، وَالْقِيَاسُ: فِي الْأَدِلَّةِ الْعَقْلِيَّةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ وَالتَّأْوِيلُ الْخَطَأُ إنَّمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُتَشَابِهَةِ، وَالْقِيَاسُ الْخَطَأُ إنَّمَا يَكُونُ فِي الْمَعَانِي الْمُتَشَابِهَةِ وَقَدْ وَقَعَ بَنُو آدَمَ فِي عَامَّةِ مَا يَتَنَاوَلُهُ هَذَا الْكَلَامُ مِنْ أَنْوَاعِ الضَّلَالَاتِ حَتَّى آلَ الْأَمْرُ إلَى مَنْ يَدَّعِي التَّحْقِيقَ وَالتَّوْحِيدَ وَالْعِرْفَانَ مِنْهُمْ إلَى أَنْ اشْتَبَهَ عَلَيْهِمْ وُجُودُ الرَّبِّ بِوُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ فَظَنُّوا أَنَّهُ هُوَ فَجَعَلُوا وُجُودَ الْمَخْلُوقَاتِ عَيْنَ وُجُودِ الْخَالِقِ مَعَ أَنَّهُ لَا شَيْءَ أَبْعَدُ عَنْ مُمَاثَلَةِ شَيْءٍ وَأَنْ يَكُونَ إيَّاهُ أَوْ مُتَّحِدًا بِهِ ؛ أَوْ حَالًّا فِيهِ مِنْ الْخَالِقِ مَعَ الْمَخْلُوقِ»

ومن أعظم الطوائف ضلالًا وانحرافًا أهل وحدة الوجود الذين يقولون: أن الوجود واحد وجود الخالق هو وجود المخلوق ووجود المخلوق هو وجود الخالق تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

المحاضرة الثانية والعشرون

واعلم أن الحُلول ينقسم إلى قسمين: حُلول عام وحُلول خاص، كما أنَّ الاتحاد ينقسم إلى: اتحاد عام واتحاد خاص.

الحلول الخاص: كقول بعض النصارى؛ أنَّ اللاهوت حلّ في الناسوت كحلول الماء في الإناء.

وكقول مثلًا غُلاة الرافضة: أن الإله حلّ في روح عليّ وسائر الأئمة.

الاتحاد الخاص: كقول بعض النصارى؛ اتحد اللاهوت في الناسوت فصارا شيئًا واحد.

الاتحاد العام: كقول أصحاب وحدة الوجود: أنَّ الله هو هذه الموجودات.

الحلول العام : كقول بعض قدماء الجهميَّة: أنَّ الله عز وجل حالٌّ في كل مكان.

ما الفرق بين الحلول والاتحاد؟ أو الفرق بين الوحدة والاتحاد؟

*الوحدة تعني: أنَّ الشيئين شيءٌ واحد في الأصل، ، أما الاتحاد فعندهم أنَّ الشيئين كانا منفصلين ثم صارا شيئًا واحدًا

*أيضًا من الفروق أنَّ القول بالحلول يتضمن تميز الوجودين وإثباتهما، بمعنى نثبت هذا الموجود ونثبت هذا الموجود، ونميز هذا الموجود ونميز هذا الموجود؛ لكن أحد هذين الموجودين حلَّ في الآخر كمثل الروح والجسد أما الاتحاد فلا؛ فليس ثمة هناك أكثر من وجود، الوجود واحد.

مثاله: إذا امتزج اللبن بالماء صارا شيئا واحدا، ليس عندنا موجودان بل ثمة موجود واحد.

«وَذَلِكَ أَنَّ الْمَوْجُودَاتِ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ فَرَأَوْا

الْوُجُودَ وَاحِدًا» هم لمَّا رأوا أنَّ الموجودات يجمعها مسمى (الوجود) ما استطاعوا أن يفرِّقوا فظنُّوا أن الوجود واحد في العين وليس في النوع،

«وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ الْوَاحِدِ بِالْعَيْنِ وَالْوَاحِدِ بِالنَّوْعِ» الواحد بالعين كما قلنا: هو ما لا يُتصوَّر فيه الاشتراك، مثل وجودك أنت.

أما الواحد بالنوع: فهو ما يُتَصوَّر فيه الاشتراك مثل مطلق الوجود، مطلق الوجود: أنا وأنت وزيد وعمرو وهذه الطاولة وهذا الكرسي كلنا نشترك في هذا المسمى، هذا يسمى واحد بالنوع، هم التبس عليهم مُسمَّى الوجود الذي اشترك فيه الخالق والمخلوق؛ لأن الخالق موجود والمخلوق موجود، اشتركا في مسمى الوجود فالتبس عليهم بدل أن يجعلوا الوجود واحد بالنوع يقبل الاشتراك جعلوه واحد بالعين، ولهذا قالوا: عين وجود الله هو عين وجود المخلوق فوقعوا في هذا الضلال الذي لم تعرف الأمة بل الأمم ضلالًا أسوأ منه.

«وَآخَرُونَ تَوَهَّمُوا أَنَّهُ إِذَا قِيلَ: الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ لَزِمَ التَّشْبِيهُ وَالتَّرْكِيبُ فَقَالُوا: لَفْظُ الْوُجُودِ مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ فَخَالَفُوا مَا اتَّفَقَت عَلَيْهِ الْعُقَلَاءُ مَعَ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ مِنْ أَنَّ الْوُجُودَ يَنْقَسِمُ إِلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْسَامِ الْمَوْجُودَاتِ»

الطائفة الثانية: الجهميَّة والفلاسفة والمعتزلة، هذه الطائفة الثانية التي ضلَّت بسبب الاشتباه الخاص

ومنشأ الظلال «أَنَّ الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ- أنَّ الموجودات إذا كانت تشترك في مُسمَّى الوجود- لَزِمَ التَّشْبِيهُ وَالتَّرْكِيبُ» والتشبيه هي شُبهة من نفى الصفات من المعتزلة والجهمية؛ قالوا: لا نثبت شيئًا من الصفات لئلا نقع في التشبيه؛ لئلا نشبه الخالق بالمخلوق، وشبهة التركيب هي الشبهة التي أدلى بها الفلاسفة وربما تأثر بها بعض الجهمية؛ وقالوا: أنه يلزم من إثبات الصفات أن يكون الله مركبًا، التركيب يعني التجزؤ، إذن منشأ الضلال عندهم أنَّ الموجودات تشترك في مطلق الوجود كما أنَّ بنو آدم يشتركون في مُسمَّى إنسان، والكائنات الحية تشترك في مسمى الحيوان، إلى الآن لا إشكال هنا في كون الموجودات تشترك في مسمى الوجود هذا بالاتفاق بيننا وبينهم وبين سائر العقلاء؛ أنَّ الموجودات تشترك في هذا القدر في مسمى الوجود؛ لكن الإشكال عندهم أنهم اعتقدوا أنَّ هذه الموجودات إذا اشتركت في مُسمَّى الوجود ترتب على هذا الوقوع في التشبيه والتركيب بمعنى أنهم إذا أثبتوا لله الوجود وأثبتوا للمخلوق الوجود وقعوا في التشبيه والتركيب، ما المخرج؟

قالوا: المخرج أن يُقال: «أن لَفْظُ الْوُجُودِ مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ» وعندنا المُشتَرَك اللفظي ما اتحدَّ لفظه واختلف معناه، مثل: (المشتري) الآن كلمة مشتري هذه من المشتركات اللفظية تُطلق ويراد بها الكوكب وتطلق ويراد بها المبتاع، ومثل لفظ: (العين) تُطلق ويراد بها العين الباصرة وتطلق ويراد بها العين الجارية وتطلق ويراد بها الجاسوس، علمًا أنَّ اللفظ واحد، هل هناك علاقة بين المشتري المبتاع في المعنى والمشتري الكوكب؟ لا؛ لا علاقة لا من قريب ولا من بعيد إنما اشتركا فقط في هذا اللفظ المكوَّن من هذه الأحرف، بخلاف المشترك المعنوي: وهو المسمَّى عند الفلاسفة المتواطئ؛ وهو ما اتحد لفظه ومعناه سواءً تفاوت هذا المعنى أم لم يتفاوت، مثل: (إنسان) يعني اتحد اللفظ والمعنى؛ لكن إنسان فيه إنسان ذكر وإنسان أنثى وإنسان طويل وإنسان قصير وإنسان حي وإنسان ميت وإنسان أبيض وإنسان أسود.

المحاضرة الثالثة والعشرون

المشترك اللفظي: ما اتحد لفظه واختلف معناه

الرد عليهم: «فَخَالَفُوا مَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الْعُقَلَاءُ مَعَ اخْتِلَافِ أَصْنَافِهِمْ مِنْ أَنَّ الْوُجُودَ يَنْقَسِمُ إِلَى قَدِيمٍ وَمُحْدَثٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنْ أَقْسَامِ الْمَوْجُودَاتِ» والانقسام يدل على أن بين القسمين وحدة، فالإنسان ينقسم إلى: ذكر وأنثى؛ ومؤمن

وكافر، كما أن الوجود ينقسم: واجب وممكن، ومشاهد وغير مشاهد، ومحسوس وغير محسوس، وملموس وغير ملموس.

فهذا الانقسام يدل على أن (الوجود) ليس مقولًا بالاشتراك اللفظي؛ وإنما هو بالمتواطئ الذي هو المشترك المعنوي.

المشترك المعنوي: هو ما اتحد لفظه ومعناه على اختلاف تفاوت هذا المعنى.

الطائفة الثالثة التي ضلت بسبب التشابه الخاص (الفلاسفة)

«وَطَائِفَةٌ ظَنَّتْ أَنَّهُ إِذَا كَانَتْ الْمَوْجُودَاتُ تَشْتَرِكُ فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ لَزِمَ أَنْ يَكُونَ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ مَوْجُودٌ مُشْتَرَكٌ فِيهِ وَزَعَمُوا أَنَّ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ كُلِّيَّاتٍ مُطْلَقَةً مِثْلَ: وُجُودٍ مُطْلَقٍ وَحَيَوَانٍ مُطْلَقٍ وَجِسْمٍ مُطْلَقٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَخَالَفُوا الْحِسَّ وَالْعَقْلَ وَالشَّرْعَ وَجَعَلُوا مَا فِي الْأَذْهَانِ ثَابِتًا فِي الْأَعْيَانِ وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ نَوْعِ الِاشْتِبَاهِ»

أنهم رأوا أن هذه الموجودات تشترك في مسمى الوجود، الإنسان، النبات، الجماد، الله عز وجل، السموات، الأرض، البحار، والجبال تشترك في مسمى الوجود،

الإشكال في قولهم: «لَزِمَ أَنْ يَكُونَ فِي الْخَارِجِ عَنْ الْأَذْهَانِ مَوْجُودٌ مُشْتَرَكٌ فِيهِ»

الوجود المطلق هذا؛ أين وجوده؟ في الذهن، يستحيل وجوده في الخارج؛ لأنه إذا وجد وحده في الخارج تحدد وتعين، الجميع يشترك في هذا؛ لكن أين هذا الوجود؟ هذا الوجود فقط في الذهن؛ لكن إذا وجد في الخارج (أنت موجود) تحدد وجودك، لا يمكن يكون مطلق يشترك معك غيرك في هذا الوجود، هم حَمَلهم على كون هذه المخلوقات تشترك في مسمى الوجود زعموا أنه يمكن أن يوجد في الخارج وجود مطلق، يوجد في الخارج كليات مطلقة، مثل «مِثْلَ وُجُودٍ مُطْلَقٍ» هل يمكن أن نجد في الخارج- خارج الذهن- وجود مطلق؟ هذا مستحيل.

هم زعموا أنه يمكن هذا؛ مادام أن المخلوقات تشترك في مسمى الوجود يمكن أن يكون هذا الوجود في الخارج وهذا مستحيل.

سيقول قائل: وجودي أنا ! أنت وجودك ليس وجود مطلق، وجودك محدد بوجودك، الوجود المطلق: الذي تشترك فيه مجموعة من الموجودات. هذا لا يمكن ، فوجودك هو وجودك لا يشاركك فيه أحد من الموجودات بخلاف الوجود المطلق لما كان في الذهن؛ كنت: أنت وزيد وعمرو وهند كلكم تشتركون في هذا الوجود؛ لكن لما خرج هذا الوجود إلى العيان تحدد بك وتحدد بهذه المرأة .

«وَحَيَوَانٍ مُطْلَقٍ» هذا موجود في الذهن ، هؤلاء الفلاسفة يقولون: يمكن أن يوجد في الخارج حيوان مطلق، أين هو؟ إن قلتم: هذا الإنسان حيوان مطلق، نقول: أنه تحدد وأصبح مقيد، هذا الجمل حيوان تحدد به فليس حيوان مطلق.

«وَجِسْمٍ مُطْلَقٍ» موجود في الذهن تشترك فيه جميع الأجسام (أنا جسم) أدخل في هذا الجسم (وأنت جسم) تدخل في هذا الجسم، (

يقول: «وَنَحْوِ ذَلِكَ فَخَالَفُوا الْحِسَّ وَالْعَقْلَ وَالشَّرْعَ» بلا شك لأن هذا غير معقول وجود إنسان مطلق وحيوان مطلق أو وجود مطلق، كذلك في الشرع، كذلك في الحس، فهذا مما اتفق عليه العقلاء؛ لكن هؤلاء قالوا بهذا القول والسبب في ذلك الاشتباه الخاص.

«وَجَعَلُوا مَا فِي الْأَذْهَانِ ثَابِتًا فِي الْأَعْيَانِ» الوجود المطلق، والإنسان المطلق، والحيوان المطلق موجود في الذهن؛ لكن يستحيل وجوده في العين – في الخارج- لأنه إذا كان في العين تحدد وتقيد تخصص بالشيء المحدد.

«وَهَذَا كُلُّهُ مِنْ نَوْعِ الِاشْتِبَاهِ» أي كل ما سبق من هذه الضلالات التي سمعناها الحلول والاتحاد والمشترك اللفظي بسبب أنواع الاشتباه،

«وَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ فَرَّقَ بَيْنَ الْأُمُورِ وَإِنْ اشْتَرَكَتْ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ وَعَلِمَ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْجَمْعِ وَالْفَرْقِ وَالتَّشَابُهِ

وَالِاخْتِلَافِ ؛ وَهَؤُلَاءِ لَا يَضِلُّونَ بِالْمُتَشَابِهِ مِنْ الْكَلَامِ لِأَنَّهُمْ يَجْمَعُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُحْكَمِ الْفَارِقِ الَّذِي يُبَيِّنُ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ الْفَصْلِ وَالِافْتِرَاقِ» .

«وَهَذَا كَمَا أَنَّ لَفْظَ (إنَّا) وَ (نَحْنُ) وَغَيْرُهُمَا مِنْ صِيَغِ الْجَمْعِ يَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ الذي لَهُ شُرَكَاءُ فِي الْفِعْلِ وَيَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاحِدُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَهُ صِفَاتٌ تَقُومُ كُلُّ صِفَةٍ مَقَامَ وَاحِدٍ وَلَهُ أَعْوَانٌ تَابِعُونَ لَهُ ؛ لَا شُرَكَاءَ لَهُ

المحاضرة الرابعة والعشرون

«فَإِذَا تَمَسَّكَ النَّصْرَانِيُّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ وَنَحْوِهِ عَلَى تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ كَانَ الْمُحْكَمُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ - ﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا﴾ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَحْتَمِلُ إِلَّا مَعْنًى وَاحِدًا يُزِيلُ مَا هُنَاكَ مِنْ الِاشْتِبَاهِ وَكَانَ مَا ذَكَرَهُ - مِنْ صِيغَةِ الْجَمْعِ مُبَيِّنًا لِمَا يَسْتَحِقُّهُ مِنْ الْعَظَمَةِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَطَاعَةِ الْمَخْلُوقَاتِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ وَغَيْرِهِمْ»

«وَأَمَّا حَقِيقَةُ مَا دَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ مِنْ حَقَائِقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَمَا لَهُ مِنْ الْجُنُودِ الَّذِينَ يَسْتَعْمِلُهُمْ فِي أَفْعَالِهِ فَلَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا هُوَ ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ - .- وَهَذَا مِنْ تَأْوِيلِ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ بِخِلَافِ الْمَلِكِ مِنْ الْبَشَرِ - - إذَا قَالَ: قَدْ أَمَرْنَا لَك بِعَطَاءِ فَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ هُوَ وَأَعْوَانُهُ - مِثْلُ كَاتِبِهِ وَحَاجِبِهِ وَخَادِمِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ أُمِرُوا بِهِ وَقَدْ يَعْلَمُ مَا صَدَرَ عَنْهُ ذَلِكَ الْفِعْلُ مِنْ اعْتِقَادَاتِهِ وَإِرَادَاتِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَاَللهُ- سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - لَا يُعْلِمُ عِبَادَهُ الْحَقَائِقَ الَّتِي أَخْبَرَ عَنْهَا مِنْ صِفَاتِهِ وَصِفَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يَعْلَمُونَ حَقَائِقَ مَا أَرَادَ بِخَلْقِهِ وَأَمْرِهِ مِنْ الْحِكْمَةِ وَلَا حَقَائِقَ مَا صَدَرَتْ عَنْهُ مِنْ الْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ» .

«وَبِهَذَا يَتَبَيَّنُ أَنَّ التَّشَابُهَ يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُتَوَاطِئَةِ؛ كَمَا يَكُونُ فِي الْأَلْفَاظِ الْمُشْتَرَكَةِ الَّتِي لَيْسَتْ بِمُتَوَاطِئَةِ»

اللفظ المتواطئ: هي الألفاظ المتفقة في اللفظ والمعنى، مثل: (إنسان)

والألفاظ المشتركة: ما اتفقت في اللفظ واختلفت في المعنى. مثل:(العين).

«وَإِنْ زَالَ الِاشْتِبَاهُ بِمَا يُمَيِّزُ أَحَدَ النَّوْعَيْنِ: مِنْ إضَافَةٍ أَوْ تَعْرِيفٍ كَمَا إذَا قِيلَ: فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ» (فيها) هنا أضاف الأنهار التي من ماء إلى الجنة، زال الاشتباه؛ عرفنا أنَّ المقصود هنا: ماء الجنة وليس ماء الدنيا، وماء الجنة يختلف تمامًا؛ لأنَّ الجنة فيها مالا عين رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر - فَهُنَاكَ قَدْ خَصَّ هَذَا الْمَاءَ بِالْجَنَّةِ فَظَهَرَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَاءِ الدُّنْيَا لَكِنَّ حَقِيقَةَ مَا امْتَازَ بِهِ ذَلِكَ الْمَاءُ غَيْرُ مَعْلُومٍ لَنَا وَهُوَ مَعَ مَا أَعَدَّهُ اللهُ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ - مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ - مِنْ التَّأْوِيلِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إلَّا اللهُ وَكَذَلِكَ مَدْلُولُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ الَّذِي يَخْتَصُّ بِهَا الَّتِي هِيَ حَقِيقَةٌ لَا يَعْلَمُهَا إلَّا هُوَ» .

«وَلِهَذَا كَانَ الْأَئِمَّةُ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ يُنْكِرُونَ عَلَى الجهمية وَأَمْثَالِهِمْ- مِنْ الَّذِينَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ - تَأْوِيلَ مَا تَشَابَهَ عَلَيْهِمْ مِنْ الْقُرْآنِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ كَمَا قَالَ أَحْمَدُ: فِي كِتَابِهِ الَّذِي صَنَّفَهُ فِي الرَّدِّ عَلَى الزَّنَادِقَةِ والجهمية فِيمَا شَكَّتْ فِيهِ مِنْ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ وَتَأَوَّلَتْهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ» .

«وَإِنَّمَا ذَمَّهُمْ - لِكَوْنِهِمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ» يعني للتأويل الباطل.

وهو تأويل الكلام على غير تأويله الصحيح ..

«وَذَكَرَ فِي ذَلِكَ مَا يَشْتَبِهُ عَلَيْهِمْ مَعْنَاهُ، وَإِنْ كَانَ لَا يَشْتَبِهُ عَلَى غَيْرِهِمْ وَذَمَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ تَأَوَّلُوهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَلَمْ يَنْفِ مُطْلَقَ لَفْظِ التَّأْوِيلِ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ لَفْظَ التَّأْوِيلِ يُرَادُ بِهِ: التَّفْسِيرُ الْمُبَيِّنُ لِمُرَادِ اللهِ بِهِ فَذَلِكَ لَا يُعَابُ بَلْ يُحْمَدُ وَيُرَادُ بِالتَّأْوِيلِ: الْحَقِيقَةُ الَّتِي اسْتَأْثَرَ اللهُ بِعِلْمِهَا فَذَاكَ لَا يَعْلَمُهُ إلَّا هُوَ وَقَدْ بَسَطْنَا هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ.»

المحاضرة الخامسة والعشرون

انتقل للرد على المفوضة (أهل التفويض) وهم في مقابل أهل التأويل الفاسد.

معنى التفويض: من فوَّض إليه الأمر، أي ردَّه إليه وصيَّره إليه وجعله الحاكم فيه.

والمراد هنا بالمفوّضة: من يفوّضون معنى نصوص الصفات إلى الله عزَّ وجل، ويزعمون أنَّ معنى هذه النصوص لا يعلمها إلا هو سبحانه مع اعتقادهم أنَّ ما يُفهم من ظاهر النص غير مراد.

«وَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ هَذَا اضْطَرَبَتْ أَقْوَالُهُمِثْلُ طَائِفَةٍ يَقُولُونَ إِنَّ التَّأْوِيلَ بَاطِلٌ وَإِنَّهُ يَجِبُ إِجْرَاءُ اللَّفْظِ عَلَى ظَاهِرِهِ وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ - وَيَحْتَجُّونَ بِهَذِهِ الْآيَةِ عَلَى إِبْطَالِ التَّأْوِيلِ» يعني إبطال التأويل بمعانيه الثلاث؛ بهذه الآية:

«وَهَذَا تَنَاقُضٌ مِنْهُمْ لِأَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ تَقْتَضِي أَنَّ هُنَاكَ تَأْوِيلًا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ وَهُمْ يَنْفُونَ التَّأْوِيلَ مُطْلَقًا وَجِهَةُ الْغَلَطِ أَنَّ التَّأْوِيلَ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ بِعِلْمِهِ هُوَ الْحَقِيقَةُ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَأَمَّا التَّأْوِيلُ الْمَذْمُومُ وَالْبَاطِلُ: فَهُوَ تَأْوِيلُ أَهْلِ التَّحْرِيفِ وَالْبِدَعِ الَّذِينَ يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ وَيَدَّعُونَ صَرْفَ اللَّفْظِ عَنْ مَدْلُولِهِ إِلَى غَيْرِ مَدْلُولِهِ بِغَيْرِ دَلِيلٍ يُوجِبُ ذَلِكَ وَيَدَّعُونَ أَنَّ فِي ظَاهِرِهِ مِنْ الْمَحْذُورِ مَا هُوَ نَظِيرُ الْمَحْذُورِ اللَّازِمِ فِيمَا أَثْبَتُوهُ بِالْعَقْلِ وَيَصْرِفُونَهُ إِلَى مَعَانٍ هِيَ نَظِيرُ الْمَعَانِي الَّتِي نَفَوْهَا عَنْهُ فَيَكُونُ مَا نَفَوْهُ مِنْ جِنْسِ مَا أَثْبَتُوهُ فَإِنْ كَانَ الثَّابِتُ حَقًّا مُمْكِنًا كَانَ الْمَنْفِيُّ مِثْلَهُ وَإِنْ كَانَ الْمَنْفِيُّ بَاطِلًا مُمْتَنِعًا كَانَ الثَّابِتُ مِثْلَهُ»

*الشيخ أراد أن يبين في الكلام السابق أنَّ كلا الطائفتين (المفوضة والمؤولة) وقعتا في التناقض الذي صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى آخر بغير دليل أنه متناقض، وأيضًا الذي نفى التأويل مطلقًا بحجة قوله عزَّ وجل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾

يقول: «وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَنْفُونَ التَّأْوِيلَ مُطْلَقًا وَيَحْتَجُّونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ قَدْ يَظُنُّونَ أَنَّا خُوطِبْنَا فِي الْقُرْآنِ بِمَا لَا يَفْهَمُهُ أَحَدٌ ؛ أَوْ بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ أَوْ بِمَا لَا يُفْهَمُ مِنْهُ شَيْءٌ وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ فَهُوَ مُتَنَاقِضٌ لِأَنَّا إِذَا لَمْ نَفْهَمْ مِنْهُ شَيْئًا لَمْ يَجُزْ لَنَا أَنْ نَقُولَ لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ وَلَا يُوَافِقُهُ لِإِمْكَانِ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَعْنًى صَحِيحٌ وَذَلِكَ الْمَعْنَى الصَّحِيحُ: لَا يُخَالِفُ الظَّاهِرَ الْمَعْلُومَ لَنَا فَإِنَّهُ لَا ظَاهِرَ لَهُ عَلَى قَوْلِهِمْ - فَلَا تَكُونُ دَلَالَتُهُ عَلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى دَلَالَةً عَلَى خِلَافِ الظَّاهِرِ فَلَا يَكُونُ تَأْوِيلًا وَلَا يَجُوزُ نَفْيُ دَلَالَتِهِ عَلَى مَعَانٍ لَا نَعْرِفُهَا عَلَى هَذَا التَّقْدِيرِ» لا يجوز أن تنفي المعنى الذي أثبته لأنك أنت تقول: هذا الكلام لا معنى له،

«فَإِنَّ تِلْكَ الْمَعَانِيَ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا قَدْ لَا نَكُونُ عَارِفِينَ بِهَا وَلِأَنَّا إِذَا لَمْ نَفْهَمْ اللَّفْظَ وَمَدْلُولَهُ فَلِأَنْ لَا نَعْرِفَ الْمَعَانِيَ الَّتِي لَمْ يَدُلَّ عَلَيْهَا اللَّفْظُ أَوْلَى لِأَنَّ إِشْعَارَ اللَّفْظِ بِمَا يُرَادُ بِهِ أَقْوَى مِنْ إِشْعَارِهِ بِمَا لَا يُرَادُ بِهِ فَإِذَا كَانَ اللَّفْظُ لَا إِشْعَارَ لَهُ بِمَعْنَى مِنْ الْمَعَانِي - وَلَا يُفْهَمُ مِنْهُ مَعْنًى أَصْلًا لَمْ يَكُنْ مُشْعِرًا بِمَا أُرِيدَ بِهِ فَلَأَنْ لَا يَكُونَ مُشْعِرًا بِمَا لَمْ يُرَدْ بِهِ أَوْلَى» .

«فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ: إِنَّ هَذَا اللَّفْظَ مُتَأَوَّلٌ بِمَعْنَى أَنَّهُ مَصْرُوفٌ عَنْ الِاحْتِمَالِ الرَّاجِحِ إِلَى الِاحْتِمَالِ الْمَرْجُوحِ فَضْلًا عَنْ أَنْ يُقَالَ : إِنَّ هَذَا التَّأْوِيلَ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُرَادَ بِالتَّأْوِيلِ مَا يُخَالِفُ ظَاهِرُهُ الْمُخْتَصُّ بِالْخَلْقِ فَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ أَرَادَ بِالظَّاهِرِ هَذَا لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ ظَاهِرَهُ

«لَكِنْ إِذَا قَالَ هَؤُلَاءِ : أَنَّهُ لَيْسَ لَهَا تَأْوِيلٌ يُخَالِفُ الظَّاهِرَ أَوْ أَنَّهَا تَجْرِي عَلَى الْمَعَانِي الظَّاهِرَةِ مِنْهَا كَانُوا مُتَنَاقِضِينَ وَإِنْ أَرَادُوا بِالظَّاهِرِ هُنَا مَعْنًى وَهُنَاكَ مَعْنًى : فِي سِيَاقٍ وَاحِدٍ مِنْ غَيْرِ بَيَانٍ كَانَ تَلْبِيسًا وَإِنْ أَرَادُوا بِالظَّاهِرِ مُجَرَّدَ اللَّفْظِ أَيْ تَجْرِي عَلَى مُجَرَّدِ اللَّفْظِ الَّذِي يَظْهَرُ مِنْ غَيْرِ فَهْمٍ لِمَعْنَاهُ كَانَ إِبْطَالُهُمْ لِلتَّأْوِيلِ أَوْ إِثْبَاتُهُ تَنَاقُضًا لِأَنَّ مَنْ أَثْبَتَ تَأْوِيلًا أَوْ نَفَاهُ فَقَدْ فَهِمَ مَعْنًى مِنْ الْمَعَانِي»

«وَبِهَذَا التَّقْسِيمِ يَتَبَيَّنُ تَنَاقُضُ كَثِيرٍ مِنْ النَّاسِ مِنْ نفاة الصِّفَاتِ وَمُثْبِتِيهَا فِي هَذَا الْبَابِ»،

القاعدة السادسة

: «الْقَاعِدَةُ السَّادِسَةُ أَنَّهُ لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ: لَا بُدَّ فِي هَذَا الْبَابِ مِنْ ضَابِطٍ يُعْرَفُ بِهِ مَا يَجُوزُ عَلَى اللهِ مِمَّا لَا يَجُوزُ فِي النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ إِذِ الِاعْتِمَادُ فِي هَذَا الْبَابِ عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ أَوْ مُطْلَقِ الْإِثْبَاتِ مِنْ غَيْرِ تَشْبِيهٍ لَيْسَ بِسَدِيدٍ وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إِلَّا بَيْنَهُمَا قَدْرٌ مُشْتَرَكٌ وَقَدْرٌ مُمَيَّزٌ».

المحاضرة السادسة والعشرون

يقول : «فَالنَّافِي- وهو المُعطِّل - إِنْ اعْتَمَدَ فِيمَا يَنْفِيهِ عَلَى أَنَّ هَذَا تَشْبِيهٌ»

«قِيلَ لَهُ : إِنْ أَرَدْت أَنَّهُ مُمَاثِلٌ لَهُ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ فَهَذَا بَاطِلٌ وَإِنْ أَرَدْت أَنَّهُ مُشَابِهٌ لَهُ مِنْ وَجْهٍ دُونَ وَجْهٍ أَوْ مُشَارِكٌ لَهُ فِي الِاسْمِ لَزِمَك هَذَا فِي سَائِرِ مَا تُثْبِتُهُ».

يقول: «وَأَنْتُمْ إنَّمَا أَقَمْتُمْ الدَّلِيلَ عَلَى إبْطَالِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمَاثُلِ الَّذِي فَسَّرْتُمُوهُ بِأَنَّهُ يَجُوزُ عَلَى أَحَدِهِمَا مَا يَجُوزُ عَلَى الْآخَرِ وَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَا يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ وَيَجِبُ لَهُ مَا يَجِبُ لَهُ» هذا هو التمثيل الذي فرُّوا منه؛ ولا شك أنّ هذا الضابط ليس بصحيح.

يقول: «وَمَعْلُومٌ أَنَّ إثْبَاتَ التَّشْبِيهِ بِهَذَا التَّفْسِيرِ مِمَّا لَا يَقُولُهُ عَاقِلٌ يَتَصَوَّرُ مَا يَقُولُ ؛ فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ امْتِنَاعُهُ وَلَا يَلْزَمُ مِنْ نَفْيِ هَذَا نَفْيُ التَّشَابُهِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ، كَمَا فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْمُتَوَاطِئَةِ وَلَكِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ التَّشْبِيهَ مُفَسَّرًا بِمَعْنَى مِنْ الْمَعَانِي ثُمَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ ذَلِكَ الْمَعْنَى قَالُوا : إنَّهُ مُشَبِّهٌ وَمُنَازِعُهُمْ يَقُولُ : ذَلِكَ الْمَعْنَى لَيْسَ مِنْ التَّشْبِيهِ» مثال ذلك: عموم المُعطِلة قالوا: من أثبتَ لله العُلوّ فقد زعمَ أنه جسم، والأجسام متماثلة وهذا هو التشبيه، ولهذا عندهم من أثبت لله العلوّ فهو مُشبِّه. إذن فسّر التشبيه هنا بمعنى هو الذي ذكرهُ، كيف؟ قال: من أثبت العلو لله فقد زعمَ أنه جسم، والأجسام متماثلة وبناءً عليه من أثبت لله العلو فهو مُشبِّه.

يقول: «وَقَدْ يُفَرَّقُ بَيْنَ لَفْظِ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ وَذَلِكَ أَنَّ الْمُعْتَزِلَةَ وَنَحْوَهُمْ مِنْ نفاة الصِّفَاتِ يَقُولُونَ: كُلُّ مَنْ أَثْبَتَ لِلَّهِ صِفَةً قَدِيمَةً فَهُوَ مُشَبِّهٌ مُمَثِّلٌ وَلَكِنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ يَجْعَلُ التَّشْبِيهَ مُفَسَّرًا بِمَعْنَى مِنْ الْمَعَانِي ثُمَّ أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ ذَلِكَ الْمَعْنَى قَالُوا: إنَّهُ مُشَبِّهٌ

قال: «لِأَنَّ الْقَدِيمَ عِنْدَ جُمْهُورِهِمْ هُوَ (أَخَصُّ) وَصْفِ الْإِلَهِ فَمَنْ أَثْبَتَ لَهُ صِفَةً قَدِيمَةً فَقَدْ أَثْبَتَ لِلَّهِ مَثَلًا قَدِيمًا وَيُسَمُّونَهُ مُمَثِّلًا بِهَذَا الِاعْتِبَارِ» ، علمًا أنَّ هذا اللفظ أيضًا ليس من صفات الله عز وجل؛ لكن لا بأس أن يُستخدَم من باب الإخبار عن الله، وإلا اللفظ الشرعي الذي أضافه اللهُ عز وجل لنفسه والذي لا يدلّ إلا على الكمال المُطلق هو صفة الأوّليّة، قال الله عز وجل: ﴿هو الأوّلُ والآخر﴾

يقول: «وَمُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ -سواءٌ أهل السنة أو من شاركهم من الأشاعرة فيما أثبتوه من الصفات السبع - لَا يُوَافِقُونَهُمْ عَلَى هَذَا» بَلْ يَقُولُونَ : أَخَصُّ وَصْفِهِ مَا لَا يَتَّصِفُ بِهِ غَيْرُهُ مِثْلُ كَوْنِهِ رَبَّ الْعَالَمِينَ وَأَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ إلَهٌ وَاحِدٌ وَنَحْوُ ذَلِكَ ؛ وَالصِّفَةُ لَا تُوصَفُ بِشَيْءِ مِنْ ذَلِكَ ثُمَّ مِنْ هَؤُلَاءِ الصفاتية - المثبتة للصفات- مَنْ لَا يَقُولُ فِي الصِّفَاتِ إنَّهَا قَدِيمَةٌ» بَلْ يَقُولُ : الرَّبُّ بِصِفَاتِهِ قَدِيمٌ» لئلا يقع في هذا اللبس، لا يقول لك: الصفة قديمة والربّ قديم لا، بل يقول: الربّ بصفاته قديم، اللهُ بصفاته هو الأوّل؛ لئلا يتبادر إلى ذهن السامع أنّ الصفة شيء والموصوف اللهُ عز وجل شيء آخر.

«ولا يقول: هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ: هُوَ قَدِيمٌ وَصِفَتُهُ قَدِيمَةٌ، وَلَا يَقُول : هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ» احترازًا أيضًا من خشية الإشعار بالتعدد كأنّ اللفظ لما يقول: الله وصفاته قديمان كأنّ اللفظ يُشعِر أنّ هناك أكثر من قديم، فيقول: أنا أقول: هو وصفته قديمة .

يقول: «وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : هُوَ وَصِفَاتُهُ قَدِيمَانِ؛ وَلَكِنْ يَقُولُ: ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي مُشَارَكَةَ الصِّفَةِ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِهِ فَإِنَّ الْقِدَمَ لَيْسَ مِنْ خَصَائِصِ الذَّاتِ الْمُجَرَّدَةِ وَإِلَّا فَالذَّاتُ الْمُجَرَّدَةُ لَا وُجُودَ لَهَا عِنْدَهُمْ فَضْلًا عَنْ أَنْ

تَخْتَصَّ بِالْقِدَمِ»

«ـقَدْ يَقُولُونَ: الذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَالصِّفَاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَلَيْسَتْ الصِّفَاتُ إِلَهًا وَلَا رَبًّا كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم- مُحْدَثٌ وَصِفَاتُهُ مُحْدَثَةٌ وَلَيْسَتْ صِفَاتُهُ نَبِيًّا»

المحاضرة السابعة والعشرون

يقول الشيخ: «فَإِنَّ الْقِدَمَ لَيْسَ مِنْ خَصَائِصِ الذَّاتِ الْمُجَرَّدَةِ- لأنَّ العقل لا يمكن أن يتصور وجود ذات مجردة عن الصفات- وَإِلَّا فَالذَّاتُ الْمُجَرَّدَةُ لَا وُجُودَ لَهَا عِنْدَهُمْ فَضْلًا عَنْ أَنْ تَخْتَصَّ بِالْقِدَمِ وَقَدْ يَقُولُونَ : الذَّاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَالصِّفَاتُ مُتَّصِفَةٌ بِالْقِدَمِ وَلَيْسَتْ الصِّفَاتُ إِلَهًا وَلَا رَبًّا -لأنَّ المعتزلة اعتقدوا أنه إذا أثبت الإنسان الصفات لزم من ذلك تعدد القدماء وتعدد الأرباب- كَمَا أَنَّ النَّبِيَّ مُحْدَثٌ وَصِفَاتُهُ مُحْدَثَةٌ وَلَيْسَتْ صِفَاتُهُ نَبِيًّا» .

يقول: «فَهَؤُلَاءِ -أي المعتزلة- إذَا أَطْلَقُوا عَلَى الصفاتية اسْمَ التَّشْبِيهِ وَالتَّمْثِيلِ : كَانَ هَذَا بِحَسَبِ اعْتِقَادِهِمْ الَّذِي يُنَازِعُهُمْ فِيهِ أُولَئِكَ -أي الصفاتية المثبتة للصفات.يقول: هم لا يوافقونهم على من أثبت شيئًا من الصفات يكون مُمثلًا أو مُشبِّهًا- ثُمَّ تَقُولُ لَهُمْ: أُولَئِكَ- أي المثبتة للصفات يقولون للمعتزلة - هَبْ أَنَّ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ يُسَمَّى فِي اصْطِلَاحِ بَعْضِ النَّاسِ تَشْبِيهًا فَهَذَا الْمَعْنَى لَمْ يَنْفِهِ عَقْلٌ وَلَا سَمْعٌ وَإِنَّمَا الْوَاجِبُ نَفْيُ مَا نَفَتْهُ الْأَدِلَّةُ الشَّرْعِيَّةُ وَالْعَقْلِيَّةُ»

يقول: «وَالْقُرْآنُ قَدْ نَفَى مُسَمَّى الْمِثْلِ وَالْكُفْءِ وَالنِّدِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ» المثل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ والكفء ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ والند كقوله سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾

يقول: «وَلَكِنْ يَقُولُونَ الصِّفَةُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لَيْسَتْ مِثْلَ الْمَوْصُوفِ وَلَا كُفُؤَهُ وَلَا نِدَّهُ فَلَا يَدْخُلُ فِي النَّصِّ وَأَمَّا الْعَقْلُ : فَلَمْ يَنْفِ مُسَمَّى التَّشْبِيهِ فِي اصْطِلَاحِ الْمُعْتَزِلَةِ» .

إذن من شُبَه نفاة الصفات:

الشُبهة الأولى: أنَّ إثبات الصفات يستلزم منه تعدد القدماء.

الشُبهة الثانية: أنَّ إثبات الصفات يستلزم التجسيم؛

يقول: «وَكَذَلِكَ أَيْضًا يَقُولُونَ : إنَّ الصِّفَاتِ لَا تَقُومُ إلَّا بِجِسْمِ مُتَحَيِّزٍ وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فَلَوْ قَامَتْ بِهِ الصِّفَاتُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ مُمَاثِلًا لِسَائِرِ الْأَجْسَامِ وَهَذَا هُوَ التَّشْبِيهُ»

الشبهة مكونة من هذه المقدمات:

المقدمة الأولى: الصفات لا تقوم إلا بجسم متحيز.

المقدمة الثانية: الأجسام متماثلة.

النتيجة: أنه لو قامت لله عزَّ وجل هذه الصفات للزم أن يكون مماثلًا لسائر الأجسام وهذا هو التشبيه.

يقول: «وَكَذَلِكَ يَقُولُ: هَذَا كَثِيرٌ مِنْ الصفاتية – هذه الشُبهة يقول بها المعتزلة وشاركهم فيها كثيرٌ من الصفاتية (الأشاعرة) – الَّذِينَ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ وَيَنْفُونَ عُلُوَّهُ عَلَى الْعَرْشِ وَقِيَامَ الْأَفْعَالِ الِاخْتِيَارِيَّةِ بِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ»

«وَيَقُولُونَ : – أي الأشاعرة- الصِّفَاتُ قَدْ تَقُومُ بِمَا لَيْسَ بِجِسْمِ» وهذا من التناقض الذي وقع فيه هؤلاء

«وَأَمَّا الْعُلُوُّ عَلَى الْعَالَمِ فَلَا يَصِحُّ إلَّا إذَا كَانَ جِسْمًا فَلَوْ أَثْبَتْنَا عُلُوَّهُ لَلَزِمَ أَنْ يَكُونَ جِسْمًا وَحِينَئِذٍ فَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فَيَلْزَمُ التَّشْبِيهُ»

يقول: «فَلِهَذَا تَجِدُ هَؤُلَاءِ يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ الْعُلُوَّ وَنَحْوَهُ مُشَبِّهًا وَلَا يُسَمُّونَ مَنْ أَثْبَتَ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْكَلَامَ وَنَحْوَهُ مُشَبِّهًا كَمَا يَقُولُ صَاحِبُ الْإِرْشَادِ وَأَمْثَالُهُ» هو الجويني رحمه الله وهو من أئمة الأشاعرة.

يقول: «وَكَذَلِكَ يُوَافِقُهُمْ عَلَى الْقَوْلِ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ

الْقَاضِي أَبُو يَعْلَى وَأَمْثَالُهُ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ وَالْعُلُوِّ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَجْعَلُونَ الْعُلُوَّ صِفَةً خَبَرِيَّةً» متلقاة فقط عن الخبر من الوحي؛ ولكن جمهور السنة لا ، يقولون العلو من الصفات الخبرية العقلية التي ثبتت بالعقل والخبر، خلاف الاستواء كما ذكرنا لكم سابقًا ، النزول ثبت بالخبر، المجيء ثبت بالخبر أمَّا العلو لا فهو من الصفات العقلية الخبرية

فَيَكُونُ الْكَلَامُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي الْوَجْهِ وَقَدْ يَقُولُونَ : أَنَّ مَا يُثْبِتُونَهُ لَا يُنَافِي الْجِسْمَ كَمَا يَقُولُونَهُ فِي سَائِرِ الصِّفَاتِ»

الرد على الجميع :

يقول: «وَالْعَاقِلُ إِذَا تَأَمَّلَ وَجَدَ الْأَمْرَ فِيمَا نَفَوْهُ كَالْأَمْرِ فِيمَا أَثْبَتُوهُ لَا فَرْقَ وَأَصْلُ كَلَامِ هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ عَلَى أَنَّ إِثْبَاتَ الصِّفَاتِ مُسْتَلْزِمٌ لِلتَّجْسِيمِ وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ وَالْمُثْبِتُونَ يُجِيبُونَ عَنْ هَذَا تَارَةً بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى» إثبات الصفات يستلزم التجسيم «وَتَارَةً بِمَنْعِ الْمُقَدِّمَةِ الثَّانِيَةِ» وهي أنَّ الأجسام متماثلة.

«وَتَارَةً بِمَنْعِ كُلٍّ مِنْ الْمُقَدِّمَتَيْنِ» لا يقول أهل السنة أنَّ الصفات قد تقوم بما ليس بجسم، ولا يلزم من أن تكون الأجسام متماثلة.

«وَتَارَةً بالاستفصال» يعني التفصيل، ما مرادكم بالجسم؟.

«وَلَا رَيْبَ أَنَّ قَوْلَهُمْ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ قَوْلٌ بَاطِلٌ سَوَاءٌ فَسَّرُوا الْجِسْمَ بِمَا يُشَارُ إلَيْهِ أَوْ بِالْقَائِمِ بِنَفْسِهِ أَوْ بِالْمَوْجُودِ أَوْ بِالْمُرَكَّبِ مِنْ الْهَيُولَى وَالصُّورَةِ- والهيولى على وزن فعولى؛ وهو أصل الشيء ومادته وهو جوهر في الجسم قابلٌ لما يعرض من الاتصال والانفصال، إذًا الهيولى المقصود بها المادة التي يُركَّب منها الجسم، فعنده الجسم هو المُركَّب من الهيولى والصورة - وَنَحْوِ ذَلِكَ»

يقول : «فَأَمَّا إذَا فَسَّرُوهُ بِالْمُرَكَّبِ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ» و هي التي لا تقبل التجزؤ لا بالفعل ولا بالقوة

وأيضًا أهل السنة وجمهور العقلاء يخالفون:

أولًا : أنَّ الجسم هو المركب من الجواهر المفردة، ثانيًا : يخالفونهم في أنَّ الجوهر المفرد هو مالا يقبل التجزؤ لا بالفعل ولا بالقوة فسائر العقلاء يقولون أنَّ الجسم يمكن ويقبل التجزؤ إلى أن يتلاشى أو ينتقل إلى مادة أخرى.

أيضًا من تعريفاتهم للجسم أنه مركب من جوهرين فردين فصاعدًا، ومنهم من يقول: هو ما يقبل الأبعاد الثلاثة الطول والعرض والعمق إلى غيره.

يقول الشيخ : «فَأَمَّا إذَا فَسَّرُوهُ بِالْمُرَكَّبِ مِنْ الْجَوَاهِرِ الْمُفْرَدَةِ وَعَلَى أَنَّهَا مُتَمَاثِلَةٌ فَهَذَا يُبْنَى عَلَى صِحَّةِ ذَلِكَ» على صحة أنَّ الأجسام فعلًا مركبة من الجواهر المفردة، وأنَّ الجواهر المفردة هذه موجودة وهي التي لا تقبل التجزؤ ولا الانقسام، هذا يخالفهم فيه جمهور العقلاء.

يقول: «وَعَلَى إثْبَاتِ الْجَوْهَرِ الْفَرْدِ - وَعَلَى أَنَّهُ مُتَمَاثِلٌ - أيضا أهل السنة وجمهور العقلاء لا يوافقون على افتراض وجود الجواهر المفردة وعلى أنها متماثلة إذا وجدت- وَجُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ يُخَالِفُونَهُمْ فِي ذَلِكَ»

المحاضرة الثامنة والعشرون

ثم قال: «وَالْمَقْصُودُ هُنَا أَنَّهُمْ يُطْلِقُونَ التَّشْبِيهَ عَلَى مَا يَعْتَقِدُونَهُ تَجْسِيمًا بِنَاءً عَلَى تَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ وَالْمُثْبِتُونَ يُنَازِعُونَهُمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ ؛ كَإِطْلَاقِ الرَّافِضَةِ النَّصْبَ عَلَى مَنْ تَوَلَّى أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - بِنَاءً عَلَى أَنَّ مَنْ أَحَبَّهُمَا فَقَدْ أَبْغَضَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ أَبْغَضَهُ فَهُوَ ناصبي وَأَهْلُ السُّنَّةِ يُنَازِعُونَهُمْ فِي الْمُقَدِّمَةِ الْأُولَى وَلِهَذَا يَقُولُ هَؤُلَاءِ- أي المعطلة - إنَّ الشَّيْئَيْنِ لَا يَشْتَبِهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَخْتَلِفَانِ مِنْ وَجْهٍ وَأَكْثَرُ الْعُقَلَاءِ عَلَى خِلَافِ ذَلِكَ وَقَدْ بَسَطْنَا الْكَلَامَ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَّا فِيهِ حُجَجَ مَنْ يَقُولُ بِتَمَاثُلِ الْأَجْسَامِ وَحُجَجَ مَنْ نَفَى ذَلِكَ وَبَيَّنَّا فَسَادَ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِتَمَاثُلِهَا» وهذا كما ذكره مبسوطًا في كتابه درء تعارض العقل والنقل ونقض التأسيس.

يقول: «وَأَيْضًا فَالِاعْتِمَادُ بِهَذَا الطَّرِيقِ- أي أنَّ الصفات مستلزمة للتجسيم- عَلَى نَفْيِ التَّشْبِيهِ اعْتِمَادٌ بَاطِلٌ

وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا أَثْبَتَ تَمَاثُلَ الْأَجْسَامِ - فَهُمْ لَا يَنْفُونَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحُجَّةِ الَّتِي يَنْفُونَ بِهَا الْجِسْمَ وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ هَذَا يَسْتَلْزِمُ الْجِسْمَ وَثَبَتَ امْتِنَاعُ الْجِسْمِ : كَانَ هَذَا وَحْدَهُ كَافِيًا فِي نَفْيِ ذَلِكَ» الشيخ كأنه يقول: إذا أردتم أن تنفوا عن الله عزَّ وجل التشبيه فلا حاجة لهذا التطويل فانفوا عنه التجسيم، وقولوا: أنَّ الله ليس بجسم؛ لأجل يكون النقاش معكم في هذه المسألة مباشرة، ويقول: أرادوا أن يصلوا إلى نتيجة لكن بعيدة، فيقول: اختصروا الطريقة وقولوا: أنَّ الله ليس بجسم وهذا كافي في نفي التشبيه على حد زعمكم.

يقول: «كَانَ هَذَا وَحْدَهُ كَافِيًا فِي نَفْيِ ذَلِكَ لَا يَحْتَاجُ نَفْيُ ذَلِكَ إِلَى نَفْيِ مُسَمَّى التَّشْبِيهِ لَكِنَّ نَفْيَ التَّجْسِيمِ يَكُونُ مَبْنِيًّا عَلَى نَفْيِ هَذَا التَّشْبِيهِ بِأَنْ يُقَالَ : لَوْ ثَبَتَ لَهُ كَذَا وَكَذَا لَكَانَ جِسْمًا ؛ ثُمَّ يُقَالُ : وَالْأَجْسَامُ مُتَمَاثِلَةٌ فَيَجِبُ اشْتِرَاكُهَا فِيمَا يَجِبُ وَيَجُوزُ وَيَمْتَنِعُ وَهَذَا مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ . لَكِنْ حِينَئِذٍ يَكُونُ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَسْلَكَ مُعْتَمِدًا فِي نَفْيِ التَّشْبِيهِ عَلَى نَفْيِ التَّجْسِيمِ ؛ فَيَكُونُ أَصْلُ نَفْيِهِ نَفْيُ الْجِسْمِ وَهَذَا مَسْلَكٌ آخَرُ سَنَتَكَلَّمُ عَلَيْهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ»

يقول: «وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا : أَنَّ مُجَرَّدَ الِاعْتِمَادِ فِي نَفْيِ مَا يُنْفَى عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَا يُفِيدُ إذْ مَا مِنْ شَيْئَيْنِ إلَّا يَشْتَبِهَانِ مِنْ وَجْهٍ وَيَفْتَرِقَانِ مِنْ بِخِلَافِ الِاعْتِمَادِ عَلَى نَفْيِ النَّقْصِ وَالْعَيْبِ .

يقول: «وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ سُبْحَانَهُ مُقَدَّسٌ عَنْهُ فَإِنَّ هَذِهِ طَرِيقَةٌ صَحِيحَةٌ وَكَذَلِكَ إِذَا أَثْبَتَ لَهُ صِفَاتِ الْكَمَالِ وَنَفَى مُمَاثَلَةَ غَيْرِهِ لَهُ فِيهَا فَإِنَّ هَذَا نَفْيُ الْمُمَاثَلَةِ فِيمَا هُوَ مُسْتَحِقٌّ لَهُ سبحانه وتعالى» .

يقول: «وَهَذَا حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ : وَهُوَ أَنْ لَا يَشْرَكُهُ شَيْءٌ مِنْ الْأَشْيَاءِ فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِهِ وَكُلُّ صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَهُوَ مُتَّصِفٌ بِهَا عَلَى وَجْهٍ لَا يُمَاثِلُهُ فِيهِ أَحَدٌ، وَلِهَذَا كَانَ مَذْهَبُ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَئِمَّتِهَا إثْبَاتُ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ الصِّفَاتِ وَنَفْيُ مُمَاثَلَتِهِ بِشَيْءِ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ»

الشيخ الآن يفترض لهؤلاء اعتراض:

يقول: «فَإِنْ قِيلَ إنَّ الشَّيْءَ إذَا شَابَهَ غَيْرَهُ مِنْ وَجْهٍ جَازَ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ وَوَجَبَ لَهُ مَا وَجَبَ لَهُ وَامْتَنَعَ عَلَيْهِ مَا امْتَنَعَ عَلَيْهِ».

الجواب: «قِيلَ هَبْ أَنَّ الْأَمْرَ كَذَلِكَ وَلَكِنْ إذَا كَانَ ذَلِكَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ لَا يَسْتَلْزِمُ إثْبَاتَ مَا يَمْتَنِعُ عَلَى الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَلَا نَفْيُ مَا يَسْتَحِقُّهُ لَمْ يَكُنْ مُمْتَنِعًا» .

«كَمَا إذَا قِيلَ : إنَّهُ مَوْجُودٌ حَيٌّ عَلِيمٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ وَقَدْ سُمِّيَ بَعْضُ الْمَخْلُوقَاتِ حَيًّا سَمِيعًا عَلِيمًا بَصِيرًا فَإِذَا قِيلَ : يَلْزَمُ أَنَّهُ يَجُوزُ عَلَيْهِ مَا يَجُوزُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ جِهَةِ كَوْنِهِ مَوْجُودًا حَيًّا عَلِيمًا سَمِيعًا بَصِيرًا قِيلَ : لَازِمُ هَذَا الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ لَيْسَ مُمْتَنِعًا عَلَى الرَّبِّ تَعَالَى فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَقْتَضِي حُدُوثًا وَلَا إمْكَانًا وَلَا نَقْصًا وَلَا شَيْئًا مِمَّا يُنَافِي صِفَاتِ الرُّبُوبِيَّةِ» يعني الاشتراك في المُسمَّى العام؛ مسمى الوجود مسمى السمع ومسمى البصر لا يقتضي أن يُثبت لله سبحانه وتعالى أنه حادث كما هو ثابت للمخلوق، أو أن يكون الله عزَّ وجل ممكن كما هو ثابت للمخلوق، أو إثبات نقص لله عزَّ وجل كما هو ثابت للمخلوق، قال الشيخ: ولا شيء مما ينافي صفات الربوبية.

يقول: «وَذَلِكَ أَنَّ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ هُوَ مُسَمَّى الْوُجُودِ أَوْ الْمَوْجُودُ أَوْ الْحَيَاةُ أَوْ الْحَيُّ أَوْ الْعِلْمُ أَوْ الْعَلِيمُ أَوْ السَّمْعُ أَوْ الْبَصَرُ أَوْ السَّمِيعُ أَوْ الْبَصِيرُ أَوْ الْقُدْرَةُ أَوْ الْقَدِيرُ وَالْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ مُطْلَقٌ كُلِّيٌّ لَا يَخْتَصُّ بِأَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ فَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمَا اشْتِرَاكٌ» يعني إذا قلنا: الوجود المطلق أو الحياة المطلقة؛ هل يلزم من هذا أن يقع بينهما اشتراك فيما يختص بالمخلوق أو فيما يختص بالخالق؟ لا يلزم.

ولهذا قال الشيخ: «فَلَمْ يَقَعْ بَيْنَهُمَا اشْتِرَاكٌ لَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْمُمْكِنِ الْمُحْدَثِ -الذي هو المخلوق- وَلَا فِيمَا يَخْتَصُّ بِالْوَاجِبِ الْقَدِيمِ - الذي هو الله سبحانه وتعالى- فَإِنَّ مَا يَخْتَصُّ بِهِ أَحَدُهُمَا يَمْتَنِعُ اشْتِرَاكُهُمَا فِيهِ».

يقول: «فَإِذَا كَانَ الْقَدْرُ الْمُشْتَرَكُ الَّذِي اشْتَرَكَا فِيهِ صِفَةَ

كَمَالٍ كَالْوُجُودِ وَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَلَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ شَيْءٌ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ كَمَا لَا يَدُلُّ عَلَى شَيْءٍ مِنْ خَصَائِصِ الْخَالِقِ لَمْ يَكُنْ فِي إِثْبَاتِ هَذَا مَحْذُورٌ أَصْلًا؛ بَلْ إِثْبَاتُ هَذَا مِنْ لَوَازِمِ الْوُجُودِ».

يقول: «فَكُلُّ مَوْجُودَيْنِ لَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مَنْ مِثْلِ هَذَا وَمَنْ نَفْيِ هَذَا لَزِمَهُ تَعْطِيلُ وُجُودِ كُلِّ مَوْجُودٍ»

يقول: «وَلِهَذَا لَمَّا اطَّلَعَ الْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّ هَذَا -أي نفي القدر المشترك المستلزم للتعطيل التام- حَقِيقَةُ قَوْلِ الجهمية سَمُّوهُمْ مُعَطِّلَةً وَكَانَ جَهْمٌ يُنْكِرُ أَنْ يُسَمَّى اللَّهُ شَيْئًا وَرُبَّمَا قَالَتْ الجهمية: هُوَ شَيْءٌ لَا كَالْأَشْيَاءِ -الله عز وجل يُخبَر عنه أنه شيء ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فَإِذَا نَفَى الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ مُطْلَقًا لَزِمَ التَّعْطِيلُ الْتام»

يقول: «وَالْمَعَانِي الَّتِي يُوصَفُ بِهَا الرَّبُّ تَعَالَى كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ بَلْ الْوُجُودُ وَالثُّبُوتُ وَالْحَقِيقَةُ وَنَحْوُ ذَلِكَ: تَجِبُ لَوَازِمُهَا - فَإِنَّ ثُبُوتَ الْمَلْزُومِ يَقْتَضِي ثُبُوتَ اللَّازِمِ ، وَخَصَائِصُ الْمَخْلُوقِ الَّتِي يَجِبُ تَنْزِيهُ الرَّبِّ عَنْهَا لَيْسَتْ مِنْ لَوَازِمِ ذَلِكَ أَصْلًا - بَلْ تِلْكَ مِنْ لَوَازِمِ مَا يَخْتَصُّ بِالْمَخْلُوقِ مِنْ وُجُودٍ وَحَيَاةٍ وَعِلْمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَاَللَّهُ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ خَصَائِصِ الْمَخْلُوقِينَ وَمَلْزُومَاتِ خَصَائِصِهِمْ» .

يقول: «وَهَذَا الْمَوْضِعُ مَنْ فَهِمَهُ فَهْمًا جَيِّدًا وَتَدَبَّرَهُ : زَالَتْ عَنْهُ عَامَّةُ الشُّبُهَاتِ وَانْكَشَفَ لَهُ غَلَطُ كَثِيرٍ مِنْ الْأَذْكِيَاءِ فِي هَذَا الْمَقَامِ وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ وَبُيِّنَ فِيهَا أَنَّ الْقَدْرَ الْمُشْتَرَكَ الْكُلِّيَّ لَا يُوجَدُ فِي الْخَارِجِ إلَّا مُعَيَّنًا مُقَيَّدًا» .

«وَأَنَّ مَعْنَى اشْتِرَاكِ الْمَوْجُودَاتِ فِي أَمْرٍ مِنْ الْأُمُورِ هُوَ تَشَابُهُهَا مِنْ ذَلِكَ الْوَجْهِ وَأَنَّ ذَلِكَ الْمَعْنَى الْعَامَّ يُطْلَقُ عَلَى هَذَا وَهَذَا؛ لِأَنَّ الْمَوْجُودَاتِ فِي الْخَارِجِ لَا يُشَارِكُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ -بمعنى الاشتراك في الذهن أمّا في الخارج فتنتفي المشاركة - فِي شَيْءٍ مَوْجُودٍ فِيهِ بَلْ كُلُّ مَوْجُودٍ مُتَمَيِّزٌ عَنْ غَيْرِهِ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ» إذا صار هذا الشيء خارج الذهن هذا القدر المشترك وجد في الخارج صار مخصصًا مقيدًا انتفت فيه المشاركة وصار لكلٍّ صفاته وقدره وذاته الخاصة به.

المحاضرة التاسعة والعشرون

يقول الشيخ: «وَلَمَّا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ كَانَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ مُتَنَاقِضًا فِي هَذَا الْمَقَامِ فَتَارَةً يَظُنُّ أَنَّ إثْبَاتَ الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ يُوجِبُ التَّشْبِيهَ الْبَاطِلَ فَيَجْعَلُ ذَلِكَ لَهُ حُجَّةً فِيمَا يَظُنُّ نَفْيَهُ مِنْ الصِّفَاتِ حَذَرًا مِنْ مَلْزُومَاتِ التَّشْبِيهِ وَتَارَةً يَتَفَطَّنُ أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إثْبَاتِ هَذَا عَلَى تَقْدِيرِ - فَيُجِيبُ بِهِ فِيمَا يُثْبِتُهُ مِنْ الصِّفَاتِ لِمَنْ احْتَجَّ بِهِ مِنْ النفاة»

يقول الشيخ: بسبب الاضطراب وعدم فهم القدر المشترك اضطرب الناس في هذه المسائل،

سيذكر الشيخ أمثلة على ذلك كما هي الحال عند الأشاعرة والمعتزلة:

يقول: «وَلِكَثْرَةِ الِاشْتِبَاهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ: وَقَعَتْ الشُّبْهَةُ فِي أَنَّ (وُجُودَ الرَّبِّ) هَلْ هُوَ عَيْنُ مَاهِيَّتِهِ أَوْ زَائِدٌ عَلَى مَاهِيَّتِهِ؟» والمقصود بالماهيَّة: حقيقة الشيء، بمعنى الحقيقة التي هي أصل الشيء وأساسه وجوهره وما به قِوامُه.

«وَهَلْ لَفْظُ (الْوُجُودِ) مَقُولٌ بِالِاشْتِرَاكِ اللَّفْظِيِّ أَوْ التَّوَاطُؤِ أَوْ التَّشْكِيكِ؟»

والمُشَكَّك كما عرفوه عبارة عن: ما يدل على أشياء فوق واحد باعتبار معنىً واحد تختلف فيما بينها إمَّا بشدة أو ضعف أو تقدم أو تأخر؛ كما هي الحال في البياض، يطلق على بياض الثلج ويطلق على بياض العاج، كذلك النور يطلق على نور الشمس ويطلق على نور السراج.

أو قيل تعريف آخر للمشكك هو: اللفظ الدال على معنى يوجد في أفراده بنسبٍ مختلفة.

الشاهد: أنه من ضمن التعاريف التي عُرِّفت بها الأحوال عبارة عن صفات إثباتية غير متصفة بالوجود ولا بالعدم.

وقد يُعبِّر عنها بما به الاتفاق والافتراق بين الذات والصفة؛ ولهذا يُقال: سميع وسامع؛ الحال هي نسبةُ السمع للسامع فهذه النسبة هي الحال، نسبة الصفة إلى الموصوف، بعضهم يقول: الأحوال موجودة، وبعضهم يقول: الأحوال ليست موجودة هذا هو الاضطراب الذي وقع بسبب عدم فهم القدر المشترك.

يقول: «كَمَا وَقَعَ الِاشْتِبَاهُ فِي (إِثْبَاتِ الْأَحْوَالِ وَنَفْيِهَا) وَفِي أَنَّ (الْمَعْدُومَ) هَلْ هُوَ شَيْءٌ أَمْ لَا؟ وَفِي (وُجُودِ الْمَوْجُودَاتِ) هَلْ هُوَ زَائِدٌ عَلَى مَاهِيَّتِهَا أَمْ لَا؟» .

يقول الشيخ: «وَقَدْ كَثُرَ مِنْ أَئِمَّةِ النُّظَّارِ الِاضْطِرَابُ وَالتَّنَاقُضُ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ فَتَارَةً يَقُولُ أَحَدُهُمْ: الْقَوْلَيْنِ الْمُتَنَاقِضَيْنِ وَيَحْكِي عَنْ النَّاسِ مَقَالَاتٍ مَا قَالُوهَا وَتَارَةً يَبْقَى فِي الشَّكِّ وَالتَّحَيُّرِ».

«وَقَدْ بَسَطْنَا مِنْ الْكَلَامِ فِي هَذِهِ الْمَقَامَاتِ وَمَا وَقَعَ مِنْ الِاشْتِبَاهِ وَالْغَلَطِ وَالْحَيْرَةِ فِيهَا لِأَئِمَّةِ الْكَلَامِ وَالْفَلْسَفَةِ مَا لَا تَتَّسِعُ لَهُ هَذِهِ الْجُمَلُ الْمُخْتَصَرَةُ وَبَيَّنَّا أَنَّ الصَّوَابَ»

الشيخ الآن يبين باختصار الصواب في هذه المسائل التي جرى الخلاف فيها بسبب عدم فهم القدر المشترك:

يقول: «هُوَ أَنَّ وُجُودَ كُلِّ شَيْءٍ فِي الْخَارِجِ هُوَ مَاهِيَّتُه الْمَوْجُودَةُ فِي الْخَارِجِ» وجود الشيء في الخارج هو عين ماهيته، ولا يمكن أن تفصل الوجود عن الماهية.

«بِخِلَافِ الْمَاهِيَّةِ الَّتِي فِي الذِّهْنِ فَإِنَّهَا مُغَايِرَةٌ لِلْمَوْجُودِ فِي الْخَارِجِ ؛ وَأَنَّ لَفْظَ الذَّاتِ وَالشَّيْءِ وَالْمَاهِيَّةِ وَالْحَقِيقَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ كُلُّهَا مُتَوَاطِئَةٌ فَإِذَا قِيلَ : إنَّهَا مُشَكِّكَةٌ لِتَفَاضُلِ مَعَانِيهَا فَالْمُشَكِّكُ نَوْعٌ مِنْ الْمُتَوَاطِئِ الْعَامِّ - لِتَفَاضُلِ مَعَانِيهَا فَالْمُشَكِّكُ نَوْعٌ مِنْ الْمُتَوَاطِئِ الْعَامِّ الَّذِي يُرَاعَى فِيهِ دَلَالَةُ اللَّفْظِ عَلَى الْقَدْرِ الْمُشْتَرَكِ سَوَاءٌ كَانَ الْمَعْنَى مُتَفَاضِلًا فِي مَوَارِدِهِ أَوْ مُتَمَاثِلًا»

يقول: «وَبَيَّنَّا أَنَّ الْمَعْدُومَ شَيْءٌ أَيْضًا فِي الْعِلْمِ وَالذِّهْنِ لَا فِي الْخَارِجِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ الثُّبُوتِ وَالْوُجُودِ لَكِنَّ الْفَرْقَ ثَابِتٌ بَيْنَ الْوُجُودِ الْعِلْمِيِّ وَالْعَيْنِيِّ مَعَ أَنَّ مَا فِي الْعِلْمِ لَيْسَ هُوَ الْحَقِيقَةَ الْمَوْجُودَةَ وَلَكِنْ هُوَ الْعِلْمُ التَّابِعُ لِلْعَالِمِ الْقَائِمِ بِهِ» وجود الشيء في الذهن يختلف عن وجوده في الخارج، فمثلاً: الولد بالنسبة لهذا الشخص الذي لم يتزوج بعد هو معدوم، الآن هو شيء في الذهن؛ ولكن في الخارج لا وجود له، فإذا وجد في الخارج انتفى عنه العدم.

يقول: «وَكَذَلِكَ الْأَحْوَالُ الَّتِي تَتَمَاثَلُ فِيهَا الْمَوْجُودَاتُ وَتَخْتَلِفُ : لَهَا وُجُودٌ فِي الْأَذْهَانِ وَلَيْسَ فِي الْأَعْيَانِ إلَّا الْأَعْيَانُ الْمَوْجُودَةُ وَصِفَاتُهَا الْقَائِمَةُ بِهَا الْمُعَيَّنَةُ- يعني حال نسبة الصفة للموصوف هذه موجودة في الذهن؛ لكن في الخارج لا يوجد إلا صفة موصوف بها هذا الموصوف، هذه الذات موصوفة بهذه الصفة- فَتَتَشَابَهُ بِذَلِكَ وَتَخْتَلِفُ بِهِ، وَأَمَّا هَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمُخْتَصَرَةُ فَإِنَّ الْمَقْصُودَ بِهَا التَّنْبِيهُ عَلَى جُمَلٍ مُخْتَصَرَةٍ جَامِعَةٍ مَنْ فَهِمَهَا عَلِمَ قَدْرَ نَفْعِهَا وَانْفَتَحَ لَهُ بَابُ الْهُدَى وَإِمْكَانُ إغْلَاقِ بَابِ الضَّلَالِ؛ ثُمَّ بَسْطُهَا وَشَرْحُهَا لَهُ مَقَامٌ آخَرُ؛ إذْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ» ..

يقول : «وَالْمَقْصُودُ : هُنَا أَنَّ الِاعْتِمَادَ عَلَى مِثْلِ هَذِهِ الْحُجَّةِ - فِيمَا يُنْفَى عَنْ الرَّبِّ وَيُنَزَّهُ عَنْهُ -كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنْ الْمُصَنِّفِينَ - خَطَأٌ لِمَنْ تَدَبَّرَ ذَلِكَ وَهَذَا مِنْ طُرُقِ النَّفْيِ الْبَاطِلَةِ» إذًا من طرق النفي الباطلة الاعتماد على مجرد (نفي التشبيه) فيما يُنفى عن الله عز وجل.

وانتقل بعد ذلك إلى الشق الثاني في (مجرد النفي) في القاعدة السادسة:

قال: «(فَصْلٌ) : وَأَفْسَدُ مِنْ ذَلِكَ : مَا يَسْلُكُهُ نفاة الصِّفَاتِ أَوْ بَعْضِهَا إذَا أَرَادُوا أَنْ يُنَزِّهُوهُ عَمَّا يَجِبُ تَنْزِيهُهُ عَنْهُ مِمَّا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الْكُفْرِ مِثْلَ أَنْ يُرِيدُوا تَنْزِيهَهُ عَنْ الْحُزْنِ وَالْبُكَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ وَيُرِيدُونَ الرَّدَّ عَلَى الْيَهُودِ : الَّذِينَ يَقُولُونَ إنَّهُ بَكَى عَلَى الطُّوفَانِ حَتَّى رَمِدَ وَعَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ»

يقول: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ بِإِلَهِيَّةِ بَعْضِ الْبَشَرِ وَأَنَّهُ اللَّهُ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَحْتَجُّ عَلَى هَؤُلَاءِ بِنَفْيِ التَّجْسِيمِ وَالتَّحَيُّزِ وَيَقُولُونَ لَوْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ النَّقَائِصِ وَالْآفَاتِ لَكَانَ

جِسْمًا أَوْ مُتَحَيِّزًا وَذَلِكَ مُمْتَنِعٌ وَبِسُلُوكِهِمْ مِثْلَ هَذِهِ الطَّرِيقِ اسْتَظْهَرَ عَلَيْهِمْ هَؤُلَاءِ الْمَلَاحِدَةُ نفاة الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ فَإِنَّ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ لَا يَحْصُلُ بِهَا الْمَقْصُودُ لِوُجُوهٍ» بمعنى نفي النقائص عن الله بحجة التجسيم والتحيز لا يحصل به المقصود لوجوه،

المحاضرة الثلاثين

«(أَحَدُهَا) أَنَّ وَصْفَ اللهِ تَعَالَى بِهَذِهِ النَّقَائِصِوَالْآفَاتِ أَظْهَرُ فَسَادًا فِي الْعَقْلِ وَالدِّينِ مَنْ نَفْيِ التَّحَيُّزِ وَالتَّجْسِيمِ»

يقول: «فَإِنَّ هَذَا -أي نفي التجسيم والتحيز- فِيهِ مِنْ الِاشْتِبَاهِ وَالنِّزَاعِ وَالْخَفَاءِ مَا لَيْسَ فِي ذَلِكَ» وَكُفْرُ صَاحِبِ ذَلِكَ مَعْلُومٌ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ وَالدَّلِيلُ مُعَرِّفٌ لِلْمَدْلُولِ وَالدَّلِيلُ مُعَرِّفٌ لِلْمَدْلُولِ وَمُبَيِّنٌ لَهُ ؛ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسْتَدَلَّ عَلَى الْأَظْهَرِ الْأَبْيَنِ بِالْأَخْفَيكَمَا لَا يُفْعَلُ مِثْلُ ذَلِكَ فِي الْحُدُودِ» أي في التعاريف

«(الْوَجْهُ الثَّانِي) أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَصِفُونَهُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ - الذين هم اليهود وأمثالهم -يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَقُولُوا: نَحْنُ لَا نَقُولُ بِالتَّجْسِيمِ وَالتَّحَيُّزِ- كَمَا يَقُولُهُ مَنْ يُثْبِتُ الصِّفَاتِ وَيَنْفِي التَّجْسِيمَ فَيَصِيرُ نِزَاعُهُمْ مِثْلَ نِزَاعِ مُثْبِتَةِ الْكَلَامِ وَصِفَاتِ الْكَمَالِ فَيَصِيرُ كَلَامُ مَنْ وَصَفَ اللهَ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَصِفَاتِ النَّقْصِ وَاحِدًا وَيَبْقَى رَدُّ النفاة عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِطَرِيقٍ وَاحِدٍ وَهَذَا فِي غَايَةِ الْفَسَادِ» بمعنى: أنَّ هذا يدل على أن هذه الطريقة فاسدة، أضرب لكم مثال حسي، لو جئت بحجة تريد أنَّ تثبت أن هذا الشخص حي، ونفس الحجة تريد أن تثبت أن الشخص الآخر ميت، قيل لك: حجتك فاسدة؛ لأنك بهذه الحجة تستخدمها في الشيء ونقيضه، كما صنع هؤلاء استخدموا هذه الحجة للرد على من يثبت لله صفات الكمال، وللرد على من ينسب لله تعالى صفات النقص.

«(الثَّالِثُ) أَنَّ هَؤُلَاءِ يَنْفُونَ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ أَنَّ هَؤُلَاءِ يَنْفُونَ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِمِثْلِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ وَاتِّصَافُهُ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ وَاجِبٌ ثَابِتٌ بِالْعَقْلِ وَالسَّمْعِ فَيَكُونُ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى فَسَادِ هَذِهِ الطَّرِيقَةِ»

وعندنا قاعدة: [أنَّ كل حجة استلزمت نفي ما ثبت بالشرع والعقل فهي حجة فاسدة]

«(الرَّابِعُ) أَنَّ سَالِكِي هَذِهِ الطَّرِيقَةِ- أي المُعطِّلة - مُتَنَاقِضُونَ فَكُلُّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا مِنْهُمْ أَلْزَمَهُ الْآخَرُ بِمَا يُوَافِقُهُ فِيهِ مِنْ الْإِثْبَاتِ ،كَمَا أَنَّ كُلَّ مَنْ نَفَى شَيْئًا مِنْهُمْ أَلْزَمَهُ الْآخَرُ بِمَا يُوَافِقُهُ فِيهِ مِنْ النَّفْيِ - فمثلاً: إذا جاء المعتزلي يريد أن يرد على الأشعري وقال له: كيف تثبت لله الصفات السبع وهذا يقتضي التجسيم؟ قال له الأشعري: وأنت تثبت الأسماء وهذه الأسماء أيضًا تستلزم التجسيم- فَمُثْبِتَةُ الصِّفَاتِ -الأشاعرة- كَالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالْكَلَامِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ إذَا قَالَتْ لَهُمْ النفاة كَالْمُعْتَزِلَةِ : هَذَا تَجْسِيمٌ -يعني إثبات هذه الصفات السبع يستلزم التجسيم- لِأَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ أَعْرَاضٌ وَالْعَرَضُ لَا يَقُومُ إلَّا بِالْجِسْمِ- يقولون لهم: الحياة والعلم والقدرة هذه أعراض لا نعرف أو لا نعقل منها إلا ما هو عرض، والعرض لا يقوم إلا بجسم، والأجسام عندهم متماثلة- وَالْعَرَضُ لَا يَقُومُ إلَّا بِالْجِسْمِ أَوْ لِأَنَّا لَا نَعْرِفُ مَوْصُوفًا بِالصِّفَاتِ إلَّا جِسْمًا قَالَتْ لَهُمْ الْمُثْبِتَةُ : - الأشاعرة- وَأَنْتُمْ قَدْ قُلْتُمْ : إنَّهُ حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ -يعني سميتم الله عز وجل بأنه حيٌ عليمٌ قدير- وَقُلْتُمْ: لَيْسَ بِجِسْمٍ؛ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَوْجُودًا حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا إلَّا جِسْمًا - يقول: أنتم الآن سميتم الله عز وجل بهذه الأسماء ، وأنتم تعلمون أنه لا يُسمّى بهذه الأسماء: حيّ، عليم، قدير إلا ما هو جسم- فَقَدْ أَثْبَتُّمُوهُ عَلَى خِلَافِ مَا عَلِمْتُمْ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ وَقَالُوا لَهُمْ : أَنْتُمْ أَثْبَتُّمْ حَيًّا عَالِمًا قَادِرًا ؛ بِلَا حَيَاةٍ وَلَا عِلْمٍ وَلَا قُدْرَةٍ وَهَذَا تَنَاقُضٌ يُعْلَمُ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ» يقول: أنتم أثبتم أنَّ الله عز وجل يسمى بالحيّ؛ لكن لا يوصف بالحياة، عليم لا يوصف بالعلم، قدير لا يوصف بالقدرة، قالوا لهم: وهذا تناقض يُعلم بضرورة العقل.

يقول: «ثُمَّ هَؤُلَاءِ الْمُثْبِتُونَ -الأشاعرة- إذَا قَالُوا لِمَنْ أَثْبَتَ -أهل السنة- أَنَّهُ يَرْضَى وَيَغْضَبُ وَيُحِبُّ وَيُبْغِضُ

أَوْ مَنْ وَصَفَهُ بِالِاسْتِوَاءِ وَالنُّزُولِ وَالْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ أَوْ بِالْوَجْهِ وَالْيَدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ إِذَا قَالُوا : هَذَا يَقْتَضِي التَّجْسِيمَ لِأَنَّا لَا نَعْرِفُ مَا يُوصَفُ بِذَلِكَ إِلَّا مَا هُوَ جِسْمٌ قَالَتْ لَهُمْ الْمُثْبِتَةُ:- أي أهل السنة- فَأَنْتُمْ قَدْ وَصَفْتُمُوهُ بِالْحَيَاةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ وَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَهَذَا هَكَذَا فَإِذَا كَانَ هَذَا لَا يُوصَفُ بِهِ إِلَّا الْجِسْمُ فَالْآخَرُ كَذَلِكَ وَإِنْ أَمْكَنَ أَنْ يُوصَفَ بِأَحَدِهِمَا مَا لَيْسَ بِجِسْمٍ فَالْآخَرُ كَذَلِكَ ؛ فَالتَّفْرِيقُ بَيْنَهُمَا تَفْرِيقٌ بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ وَلِهَذَا لَمَّا كَانَ الرَّدُّ عَلَى مَنْ وَصَفَ اللَّهَ تَعَالَى بِالنَّقَائِصِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ – طَرِيقًا فَاسِدًا : لَمْ يَسْلُكْهُ أَحَدٌ مِنْ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ فَلَمْ يَنْطِقْ أَحَدٌ مِنْهُمْ فِي حَقِّ اللَّهِ بِالْجِسْمِ لَا نَفْيًا وَلَا إثْبَاتًا وَلَا بِالْجَوْهَرِ وَالتَّحَيُّزِ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِأَنَّهَا عِبَارَاتٌ مُجْمَلَةٌ لَا تُحِقُّ حَقًّا وَلَا تُبْطِلُ بَاطِلًا لَمْ يَذْكُرْ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فِيمَا أَنْكَرَهُ عَلَى الْيَهُودِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ الْكُفَّارِ : مَا هُوَ مِنْ هَذَا النَّوْعِ ؛ بَلْ هَذَا هُوَ مِنْ الْكَلَامِ الْمُبْتَدَعِ الَّذِي أَنْكَرَهُ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ»

▫انتقل بعد هذا المؤلف إلى (مطلق الإثبات من غير تشبيه) وقال:

«(فَصْلٌ) : وَأَمَّا فِي طُرُقِ الْإِثْبَاتِ : فَمَعْلُومٌ أَيْضًا أَنَّ الْمُثْبَتَ لَا يَكْفِي فِي إثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ- إذْ لَوْ كَفَى فِي إثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَجَازَ أَنْ يُوصَفَ سُبْحَانَهُ مِنْ الْأَعْضَاءِ وَالْأَفْعَالِ بِمَا لَا يَكَادُ يُحْصَى- مِمَّا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ - مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَأَنْ يُوصَفَ بِالنَّقَائِصِ الَّتِي لَا تَجُوزُ عَلَيْهِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ» كقول الإنسان: الله عز وجل يجوع لا كجوع البشر، الله عز وجل يأكل لا كأكل البشر، الله عز وجل يشرب لا كشرب البشر تعالى الله عن ذلك، إذًا، لا يكفي الاعتماد على مجرد الإثبات مع نفي التشبيه، لا بد هناك قاعدة أخرى هي التي تعطينا الفيصل تعطينا القاعدة الصحيحة فيما يجب لله وما لا يجوز عليه سبحانه.

المحاضرة الحادية والثلاثون

يقول المؤلف: « (فَصْلٌ) : وَأَمَّا فِي طُرُقِ الْإِثْبَاتِ : فَمَعْلُومٌ أَيْضًا أَنَّ الْمُثْبَتَ لَا يَكْفِي فِي إثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ إذْ لَوْ كَفَى فِي إثْبَاتِهِ مُجَرَّدُ نَفْيِ التَّشْبِيهِ لَجَازَ أَنْ يُوصَفَ سُبْحَانَهُ مِنْ الْأَعْضَاءِ وَالْأَفْعَالِ بِمَا لَا يَكَادُ يُحْصَى- مِمَّا هُوَ مُمْتَنِعٌ عَلَيْهِ - مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَأَنْ يُوصَفَ بِالنَّقَائِصِ الَّتِي لَا تَجُوزُ عَلَيْهِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ كَمَا لَوْ وَصَفَهُ مُفْتَرٍ عَلَيْهِ بِالْبُكَاءِ وَالْحُزْنِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ مَعَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ - وَكَمَا لَوْ قَالَ الْمُفْتَرِي: يَأْكُلُ لَا كَأَكْلِ الْعِبَادِ وَيَشْرَبُ لَا كَشُرْبِهِمْ وَيَبْكِي وَيَحْزَنُ لَا كَبُكَائِهِمْ وَلَا حُزْنِهِمْ ؛ كَمَا يُقَالُ يَضْحَكُ لَا كَضَحِكِهِمْ وَيَفْرَحُ لَا كَفَرَحِهِمْ وَيَتَكَلَّمُ لَا كَكَلَامِهِمْ. وَلَجَازَ أَنْ يُقَالَ: لَهُ أَعْضَاءٌ كَثِيرَةٌ لَا كَأَعْضَائِهِمْ كَمَا قِيلَ : لَهُ وَجْهٌ لَا كَوُجُوهِهِمْ وَيَدَانِ لا كَأَيْدِيهِمْ - حَتَّى يَذْكُرُوا الْمَعِدَةَ وَالْأَمْعَاءَ وَالذَّكَرَ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَتَعَالَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا»

«فَإِنَّهُ يُقَالُ لِمَنْ نَفَى ذَلِكَ مَعَ إثْبَاتِ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةِ وَغَيْرِهَا مَا الْفَرْقُ بَيْنَ هَذَا وَبين مَا أَثْبَتَّهُ إذَا نَفَيْت التَّشْبِيهَ وَجَعَلْت مُجَرَّدَ نَفْيِ التَّشْبِيهِ كَافِيًا فِي الْإِثْبَاتِ فَلَا بُدَّ مِنْ إثْبَاتِ فَرْقٍ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ».

يقول: «فَإِنْ قِيلَ: الْعُمْدَةُ فِي الْفَرْقِ هُوَ السَّمْعُ فَمَا جَاءَ السَّمْعُ بِهِ أَثْبَتَهُ دُونَ مَا لَمْ يَجِئْ بِهِ السَّمْعُ» .

«قِيلَ لَهُ: -يعني المعترض- أَوَّلًا : السَّمْعُ هُوَ خَبَرُ الصَّادِقِ عَمَّا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ، فَمَا أَخْبَرَ بِهِ الصَّادِقُ فَهُوَ حَقٌّ مِنْ نَفْيٍ أَوْ إثْبَاتٍ ؛ وَالْخَبَرُ دَلِيلٌ عَلَى الْمُخْبَرِ عَنْهُ وَالدَّلِيلُ لَا يَنْعَكِسُ ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِهِ عَدَمُ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ -يعني كون السمع لم يثبت الأكل، لا يدل على أن السمع نفى الأكل - فَلَا يَلْزَمُ مِنْ عَدَمِهِ عَدَمُ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ فَمَا لَمْ يَرِدْ بِهِ السَّمْعُ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ ثَابِتًا فِي نَفْسِ الْأَمْرِ وَإِنْ لَمْ يَرِدْ بِهِ السَّمْعُ ؛ وإذَا لَمْ يَكُنْ قد نَفَاهُ وَمَعْلُومٌ أَنَّ السَّمْعَ لَمْ يَنْفِ كل هَذِهِ الْأُمُورَ بِأَسْمَائِهَا الْخَاصَّةِ فَلَا بُدَّ مِنْ ذِكْرِ مَا يَنْفِيهَا مِنْ السَّمْعِ» .

«وَإِلَّا فَلَا يَجُوزُ حِينَئِذٍ نَفْيُهَا كَمَا لَا يَجُوزُ إثْبَاتُهَا - وَأَيْضًا : فَلَا بُدَّ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ مَا يُثْبَتُ لَهُ

وَيُنْفَى عنه فَإِنَّ الْأُمُورَ الْمُتَمَاثِلَةَ فِي الْجَوَازِ وَالْوُجُوبِ وَالِامْتِنَاعِ : يَمْتَنِعُ اخْتِصَاصُ بَعْضِهَا دُونَ بَعْضٍ بالْجَوَازِ وَالْوُجُوبِ وَالِامْتِنَاعِ فَلَا بُدَّ مِنْ اخْتِصَاصِ الْمَنْفِيِّ عَنْ الْمُثْبِتِ بِمَا يَخُصُّهُ بِالنَّفْيِ وَلَا بُدَّ مِنْ اخْتِصَاصِ الثَّابِتِ عَنْ الْمَنْفِيِّ بِمَا يَخُصُّهُ من الثُّبُوتِ وَقَدْ يُعَبَّرُ عَنْ ذَلِكَ بِأَنْ يقول : لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُوجِبُ نَفْيَ مَا يَجِبُ نَفْيُهُ عَنْ اللهِ كَمَا أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ أَمْرٍ يُثْبِتُ لَهُ مَا هُوَ ثَابِتٌ وَإِنْ كَانَ السَّمْعُ كَافِيًا كَانَ مُخْبِرًا عَمَّا هُوَ الْأَمْرُ عَلَيْهِ فِي نَفْسِهِ فَمَا الْفَرْقُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ بَيْنَ هَذَا وَهَذَا .

الجواب: يقول: «فَيُقَالُ: كُلُّ مَا نافى صِفَاتُ الْكَمَالِ الثَّابِتَةِ لِلّهِ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ فَإِنَّ ثُبُوتَ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ يَسْتَلْزِمُ نَفْيَ الْآخَرِ- (هذه قاعدة عقلية فَإِذَا عُلِمَ أَنَّهُ مَوْجُودٌ وَاجِبُ الْوُجُودِ بِنَفْسِهِ وَأَنَّهُ قَدِيمٌ وَاجِبُ الْقِدَمِ : عُلِمَ امْتِنَاعُ الْعَدَمِ وَالْحُدُوثِ عَلَيْهِ وَعُلِم أَنَّهُ غَنِيٌّ عَمَّا سِوَاهُ، فَالْمُفْتَقِرُ إِلَى مَا سِوَاهُ فِي بَعْضِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ لِنَفْسِهِ لَيْسَ هُوَ مَوْجُودًا بِنَفْسِهِ بَلْ بِنَفْسِهِ وَبِذَلِكَ الْآخَرِ الَّذِي أَعْطَاهُ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ نَفْسُهُ فَلَا يُوجَدُ إِلَّا بِهِ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ ، فَكُلُّ مَا نَافَى غِنَاهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ وَهُوَ سُبْحَانَهُ وتعالى قَدِيرٌ قَوِيٌّ فَكُلُّ مَا نَافَى قُدْرَتَهُ وَقُوَّتَهُ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ، وَهُوَ سُبْحَانَهُ حَيٌّ قَيُّومٌ فَكُلُّ مَا نَافَى حَيَاتَهُ وقيوميته فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ».

«وَبِالْجُمْلَةِ فَالسَّمْعُ قَدْ أَثْبَتَ لَهُ مِنْ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِ الْكَمَالِ مَا قَدْ وَرَدَ فَكُلُّ مَا ضَادَّ ذَلِكَ فَالسَّمْعُ يَنْفِيه كَمَا يَنْفِي عَنْهُ الْمِثْلَ وَالْكُفءَ فَإِنَّ إثْبَاتَ الشَّيْءِ نَفْيٌ لِضِدِّهِ وَلِمَا يَسْتَلْزِمُ ضِدَّهُ وَالْعَقْلُ يَعْرِفُ نَفْيَ ذَلِكَ كَمَا يَعْرِفُ إثْبَاتَ ضِدِّهِ فَإِثْبَاتُ أَحَدِ الضِّدَّيْنِ نَفْيٌ لِلْآخَرِ وَلِمَا يَسْتَلْزِمُهُ»

يقول : «فَطُرُقُ الْعِلْمِ بِنَفْيِ مَا يُنَزِّهُ الرَّبُّ عَنْهُ مُتَّسِعَةٌ لَا يُحْتَاجُ فِيهَا إلَى الِاقْتِصَارِ عَلَى مُجَرَّدِ نَفْيِ التَّشْبِيهِ وَالتَّجْسِيمِ؛ كَمَا فَعَلَهُ أَهْلُ الْقُصُورِ وَالتَّقْصِيرِ، الَّذِينَ تَنَاقَضُوا فِي ذَلِكَ وَفَرَّقُوا بَيْنَ الْمُتَمَاثِلَيْنِ حَتَّى أَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ شَيْئًا احْتَجَّ عَلَيْهِ مَنْ نَفَاهُ بِأَنَّهُ يَسْتَلْزِمُ (التَّشْبِيهَ) ، وَكَذَلِكَ احْتَجَّ الْقَرَامِطَةُ عَلَى نَفْيِ جَمِيعِ الْأُمُورِ حَتَّى نَفَوْا النَّفْيَ فَقَالُوا: لَا يُقَالُ مَوْجُودَ وَلَا لَيْسَ بِمَوْجُودٍ وَلَا حَيَّ وَلَا لَيْسَ بِحَيِّ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ تَشْبِيهٌ بِالْمَوْجُودِ أَوْ الْمَعْدُومِ فَلَزِمَ نَفْيُ النَّقِيضَيْنِ وَهُوَ أَظْهَرُ الْأَشْيَاءِ امْتِنَاعًا، ثُمَّ إنَّ هَؤُلَاءِ يَلْزَمُهُمْ مِنْ تَشْبِيهِهِ بِالْمَعْدُومَاتِ وَالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْجَمَادَاتِ أَعْظَمُ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ مِنْ التَّشْبِيهِ بِالْأَحْيَاءِ الْكَامِلِينَ، فَطُرُقُ تَنْزِيهِهِ وَتَقْدِيسِهِ عَمَّا هُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ مُتَّسِعَةٌ لَا تَحْتَاجُ إلَى هَذَاوَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ مَا يُنْفَى عَنْهُ سُبْحَانَهُ وتعالى نفي متضمن للنفي والإثبات».

يقول: «إذْ مُجَرَّدُ النَّفْيِ لَا مَدْحَ فِيهِ وَلَا كَمَالَ - فَإِنَّ الْمَعْدُومَ يُوصَفُ بِالنَّفْيِ -وَالْمَعْدُومَ لَا يُشْبِهُ الْمَوْجُود وَلَيْسَ هَذَا مَدْحًا لَهُ لِأَنَّ مُشَابَهَةَ النَّاقِصِ فِي صِفَاتِ النَّقْصِ نَقْصٌ مُطْلَقًا كَمَا أَنَّ مُمَاثَلَةَ الْمَخْلُوقِ فِي شَيْءٍ مِنْ الصِّفَاتِ تَمْثِيلٌ وَتَشْبِيهٌ يُنَزَّهُ عَنْهُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَالنَّقْصُ ضِدُّ الْكَمَالِ ؛ وَذَلِكَ مِثْلُ أَنَّهُ قَدْ عُلِمَ أَنَّهُ حَيٌّ وَالْمَوْتُ ضِدُّ ذَلِكَ فَهُوَ مُنَزَّهٌ عَنْهُ ؛ وَكَذَلِكَ النَّوْمُ وَالسِّنَةُ ضِدَّ كَمَالِ الْحَيَاةِ فَإِنَّ النَّوْمَ أَخُو الْمَوْتِ وَكَذَلِكَ اللُّغُوبُ نَقْصٌ فِي الْقُدْرَةِ وَالْقُوَّةِ وَالْأَكْلُ وَالشُّرْبُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِنْ الْأُمُورِ فِيهِ افْتِقَارٌ إلَى مَوْجُودٍ غَيْرِهِ».

يقول: «كَمَا أَنَّ الِاسْتِعَانَةَ بِالْغَيْرِ وَالِاعْتِضَادَ بِهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ يتَضَمَّنُ الِافْتِقَارَ إلَيْهِ وَالِاحْتِيَاجَ إلَيْهِ . وَكُلُّ مَنْ يَحْتَاجُ إلَى مَنْ يَحْمِلُهُ أَوْ يُعِينُهُ عَلَى قِيَامِ ذَاتِهِ أو أَفْعَالِهِ فَهُوَ مُفْتَقِرٌ إلَيْهِ لَيْسَ مُسْتَغْنِيًا بِنَفْسِهِ فَكَيْفَ مَنْ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَالْآكِلُ وَالشَّارِبُ أَجْوَفُ وَالْمُصْمَتُ الصَّمَدُ أَكْمَلُ مِنْ الْآكِلِ وَالشَّارِبِ وَلِهَذَا كَانَتْ الْمَلَائِكَةُ صمدا لَا تَأْكُلُ وَلَا تَشْرَبُ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ كُلَّ كَمَالٍ ثَبَتَ لِلْمَخْلُوقِ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِهِ وَكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عَنْهُ الْمَخْلُوقُ فَالْخَالِقُ أَوْلَى بِالتَّنْزِهِ عَنْه وَالسَّمْعُ قَدْ نَفَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿اللهُ الصَّمَدُ﴾ وَالصَّمَدُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ وَلَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَهَذِهِ السُّورَةُ هِيَ نَسَبُ الرَّحْمَنِ وهِيَ الْأَصْلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَقَالَ فِي حَقِّ الْمَسِيحِ وَأُمِّهِ: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ

وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ - فَجَعَلَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ الإلوهية فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى تَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى» .

المحاضرة الثانية والثلاثون

يقول: «فَجَعَلَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى نَفْيِ الْأُلُوهِيَّةِ فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى تَنْزِيهِهِ عَنْ ذَلِكَ بِطَرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى وَالْكَبِدُ وَالطِّحَالُ وَنَحْوُ ذَلِكَ : هِيَ أَعْضَاءُ الْأَكْلِ وَالشُّرْبِ ، فَالْغَنِيُّ الْمُنَزَّهُ عَنْ ذَلِكَ؛ مُنَزَّهٌ عَنْ آلَاتِ ذَلِكَ» .

يقول الشيخ : «بِخِلَافِ الْيَدِ فَإِنَّهَا لِلْعَمَلِ وَالْفِعْلِ وَهُوَ سُبْحَانَهُ مَوْصُوفٌ بِالْعَمَلِ وَالْفِعْلِ إِذْ ذَاكَ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ ؛ فَمَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ أَكْمَلُ مِمَّنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْفِعْلِ»

«وَهُوَ سُبْحَانَهُ مُنَزَّهٌ عَنْ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ وَعَنْ آلَاتِ ذَلِكَ وَأَسْبَابِهِ وَكَذَلِكَ الْبُكَاءُ وَالْحَزَنُ - هُوَ مُسْتَلْزِمٌ للضَّعْفِ وَالْعَجْزِ الَّذِي يُنَزَّهُ الله عَنْهُ سُبْحَانَهُ ؛ بِخِلَافِ الْفَرَحِ وَالْغَضَبِ فَإِنَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ فَكَمَا أنه يُوصَفُ بِالْقُدْرَةِ دُونَ الْعَجْزِ وَبِالْعِلْمِ دُونَ الْجَهْلِ وَبِالْحَيَاةِ دُونَ الْمَوْتِ وَبِالسَّمْعِ دُونَ الصَّمَمِ وَبِالْبَصَرِ دُونَ الْعَمَى وَبِالْكَلَامِ دُونَ الْبُكْمِ فَكَذَلِكَ يُوصَفُ بِالْفَرَحِ دُونَ الْحُزْنِ وَبِالضَّحِكِ دُونَ الْبُكَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ»

يقول: «وَأَيْضًا فَقَدْ ثَبَتَ بِالْعَقْلِ مَا أَثْبَتَهُ السَّمْعُ مِنْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى لَا كُفء لَهُ وَلَا سَمِيَّ لَهُ، وَلَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ فَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ حَقِيقَتُهُ كَحَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ، وَلَا حَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِهِ كَحَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْمَخْلُوقَاتِ فَيُعْلَمُ قَطْعًا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْمَخْلُوقَاتِ لَا الْمَلَائِكَةِ وَلَا السَّمَوَاتِ وَلَا الْكَوَاكِبِ وَلَا الْهَوَاءِ وَلَا الْمَاءِ وَلَا الْأَرْضِ وَلَا الْآدَمِيِّينَ وَلَا أَبْدَانِهِمْ وَلَا أَنْفُسِهِمْ وَلَا غَيْرِ ذَلِكَ بَلْ يَعْلَمُ أَنَّ حَقِيقَتَهُ عَنْ مُمَاثَلَاتِ شَيْءٍ مِنْ الْمَوْجُودَاتِ أَبْعَدُ مِنْ سَائِرِ الْحَقَائِقِ وَأَنَّ مُمَاثَلَتَهُ لِشَيْءٍ مِنْهَا أَبْعَدُ مِنْ مُمَاثَلَةِ حَقِيقَةِ شَيْءٍ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ لِحَقِيقَةِ شيء مَخْلُوقٍ آخَرَ»

يقول: «فَإِنَّ الْحَقِيقَتَيْنِ إذَا تَمَاثَلَتَا جَازَ عَلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مَا يَجُوزُ عَلَى الْأُخْرَى وَوَجَبَ لَهَا مَا وَجَبَ لَهَا وامتنع عليها ما امتنع عليها ؛ فَيَلْزَمُ أَنْ يَجُوزَ عَلَى الْخَالِقِ الْقَدِيمِ الْوَاجِبِ بِنَفْسِهِ مَا يَجُوزُ عَلَى الْمُحْدَثِ الْمَخْلُوقِ مِنْ الْعَدَمِ وَالْحَاجَةِ وَأَنْ يُثْبَتَ لِهَذَا مَا يُثْبَتُ لِذَاكَ مِنْ الْوُجُوبِ وَالْفَنَاءِ فَيَكُونُ الشَّيْءُ الْوَاحِدُ وَاجِبًا بِنَفْسِهِ غَيْرَ وَاجِبٍ بِنَفْسِهِ ومَوْجُودًا مَعْدُومًا وَذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ وَهَذَا مِمَّا يُعْلَمُ بِهِ بُطْلَانُ قَوْلِ الْمُشَبِّهَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: بَصَرٌ كَبَصَرِي ويَدٌ كَيَدِي وَنَحْوِ ذَلِكَ تَعَالَى اللهُ عَنْ قَوْلِهِمْ عُلُوًّا كَبِيرًا وَلَيْسَ الْمَقْصُودُ هُنَا اسْتِيفَاءَ مَا يَثْبُتُ لَهُ وَمَا يُنَزَّهُ عَنْهُ - وَاسْتِيفَاءَ طُرُقِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ هَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ . وَإِنَّمَا الْمَقْصُودُ هُنَا التَّنْبِيهُ عَلَى جَوَامِعِ ذَلِكَ وَمَا سَكَتَ عَنْهُ السَّمْعُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا وَلَمْ يَكُنْ فِي الْعَقْلِ مَا يُثْبِتُهُ وَلَا يَنْفِيه سَكَتْنَا عَنْهُ- مثل ما ذكر: الجوهر، الحيّز، الجسم، العرض إلى غير ذلك- فَنُثْبِتُ مَا عَلِمْنَا ثُبُوتَهُ وَنَنْفِي مَا عَلِمْنَا نَفْيَهُ وَنَسْكُتُ عَمَّا لَا نَعْلَمُ نَفْيَهُ وَلَا إثْبَاتَهُ وَاَللَّهُ سبحانه وتعالى أَعْلَمُ».

القاعدة السابعة

يقول : «الْقَاعِدَةُ السَّابِعَةُ أَنْ يُقَالَ : إنَّ كَثِيرًا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ (السَّمْعُ) يُعْلَمُ (بِالْعَقْلِ) أَيْضًا وَالْقُرْآنُ يُبَيِّنُ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ الْعَقْلُ وَيُرْشِدُ إلَيْهِ

السمعية العقلية: أن يأتي القرآن بأدلة عقلية.

الشيخ يريد أن يرد بهذه القاعدة على جمهور المتكلمين الذين يزعمون أن القرآن والسنة أدلة سمعية بحتة، أدلة خبرية فقط، الشيخ يقول: لا، القرآن والسنة -الوحي- يتضمن الأدلة السمعية الصرفة وأيضًا الأدلة العقلية.

يقول: « إنَّ كَثِيرًا مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ (السَّمْعُ) يُعْلَمُ (بِالْعَقْلِ) أَيْضًا، وَالْقُرْآنُ يُبَيِّنُ مَا يَسْتَدِلُّ بِهِ الْعَقْلُ وَيُرْشِدُ إلَيْهِ وَيُنَبِّهُ عَلَيْهِ؛ كَمَا ذَكَرَ اللهُ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ، فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَيَّنَ مِنْ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ وَعَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَعِلْمِهِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مَا أَرْشَدَ الْعِبَادَ إلَيْهِ وَدَلَّهُمْ عَلَيْهِ؛ كَمَا بَيَّنَ أَيْضًا مَا دَلَّ عَلَى نُبُوَّةِ أَنْبِيَائِهِ؛ وَمَا دَلَّ عَلَى الْمَعَادِ وَإِمْكَانِهِ» .

«فَهَذِهِ الْمَطَالِبُ هِيَ شَرْعِيَّةٌ مِنْ جِهَتَيْنِ: مِنْ جِهَةِ أَنَّ الشَّارِعَ أَخْبَرَ بِهَا . وَمِنْ جِهَةِ أَنَّهُ بَيَّنَ الْأَدِلَّةَ الْعَقْلِيَّةَ الَّتِي يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَيْهَا» وَالْأَمْثَالُ الْمَضْرُوبَةُ فِي الْقُرْآنِ هِيَ (أَقْيِسَةٌ عَقْلِيَّةٌ) وَقَدْ بُسِطَ هذا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَهِيَ أَيْضًا عَقْلِيَّةٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُعْلَمُ بِالْعَقْلِ أَيْضًا»

«وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ يُسَمِّي هَذِهِ (الْأُصُولَ الْعَقْلِيَّةَ) لِاعْتِقَادِهِ أَنَّهَا لَا تُعْلَمُ إِلَّا بِالْعَقْلِ فَقَطْ -مسائل الأُلوهية، ومسائل النبوة، ومسائل المعاد، بعض المتكلمين يزعم أنها مسائل أصول عقلية؛ لأنها لا تُعْلَم إلا بالعقل، وهذا خطأ فادح؛ لأنها تُعلم بالشرع وتُعْلم بالعقل- فَإِنَّ السَّمْعَ هُوَ مُجَرَّدُ إخْبَارِ الصَّادِقِ وَخَبَرُ الصَّادِقِ، الَّذِي هُوَ النَّبِيُّ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إلَّا بَعْدَ الْعِلْمِ بِهَذِهِ الْأُصُولِ بِالْعَقْلِ»

«ثُمَّ إنَّهُمْ قَدْ يَتَنَازَعُونَ فِي الْأُصُولِ الَّتِي يَتَوَقَّفُ إثْبَاتُ النُّبُوَّةِ عَلَيْهَا (فَطَائِفَةٌ) -وهم المعتزلة- تَزْعُمُ: أَنَّ تَحْسِينَ الْعَقْلِ وَتَقْبِيحَهُ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْأُصُولِ- الأصول العقلية- وَأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ إثْبَاتُ النُّبُوَّةِ بِدُونِ ذَلِكَ وَيَجْعَلُونَ التَّكْذِيبَ بِالْقَدَرِ مِمَّا يَنْفِيهِ الْعَقْلُ» .

«(وَطَائِفَةٌ) تَزْعُمُ –هم الأشاعرة - أَنَّ حُدُوثَ الْعَالَمِ مِنْ هَذِهِ الْأُصُولِ –أي حدوث العالم لم يُعْلم إلا بالعقل- وَأَنَّ الْعِلْمَ بِالصَّانِعِ لَا يُمْكِنُ إلَّا بِإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ وَإِثْبَاتِ حُدُوثِهِ لَا يُمْكِنُ إلَّا بِحُدُوثِ الْأَجْسَامِ -وَحُدُوثُهَا يُعْلَمُ إمَّا بِحُدُوثِ الصِّفَاتِ ، وَإِمَّا بِحُدُوثِ الْأَفْعَالِ الْقَائِمَةِ بِهَا فَيَجْعَلُونَ نَفْيَ أَفْعَالِ الرَّبِّ وَنَفْيَ صِفَاتِهِ مِنْ الْأُصُولِ الَّتِي لَا يُمْكِنُ إثْبَاتُ النُّبُوَّةِ إلَّا بِهَا» .

يقول: «ثُمَّ هَؤُلَاءِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى نَقِيضِ لِظَنِّهِمْ أَنَّ الْعَقْلَ عَارِضُ السَّمْعِ وَهُوَ أَصْلُهُ ؛ فَيَجِبُ تَقْدِيمُهُ عَلَيْهِ» «وَهُمْ أَيْضًا عِنْدَ التَّحْقِيقِ لَا يَقْبَلُونَ الِاسْتِدْلَالَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى وَفْقِ قَوْلِهِمْ»

«وَهَؤُلَاءِ يَضِلُّونَ مِنْ وُجُوهٍ : (مِنْهَا) ظَنُّهُمْ أَنَّ السَّمْعَ بِطَرِيقِ الْخَبَرِ تَارَةً وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ بَلْ الْقُرْآنُ بَيَّنَ مِنْ الدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ - الَّتِي تُعْلَمُ بِهَا الْمَطَالِبُ الدِّينِيَّةُ - مَا لَا يُوجَدُ مِثْلُهُ فِي كَلَامِ أَئِمَّةِ النَّظَرِ فَتَكُونُ هَذِهِ الْمَطَالِبُ: شَرْعِيَّةً عَقْلِيَّةً»

«(ومِنْهَا) ظَنُّهُمْ أَنَّ الرَّسُولَ لَا يُعْلَمُ صِدْقُهُ إلَّا بِالطَّرِيقِ الْمُعَيَّنَةِ الَّتِي سَلَكُوهَا وَهُمْ مُخْطِئُونَ قَطْعًا فِي انْحِصَارِ طَرِيقِ تَصْدِيقِهِ فِيمَا ذَكَرُوهُ فَإِنَّ طُرُقَ الْعِلْمِ بِصِدْقِ الرَّسُولِ كَثِيرَةٌ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ»

المحاضرة الثالثة والثلاثون

«(مِنْهَا) ظَنُّهُمْ أَنَّ تِلْكَ الطَّرِيقَ الَّتِي سَلَكُوهَا صَحِيحَةٌ وَقَدْ تَكُونُ بَاطِلَةً».

«(وَمِنْهَا) ظَنُّهُمْ أَنَّ مَا عَارَضُوا بِهِ السَّمْعَ مَعْلُومٌ بِالْعَقْلِ وَيَكُونُونَ غَالِطِينَ فِي ذَلِكَ ؛ فَإِنَّهُ إذَا وُزِنَ بِالْمِيزَانِ الصَّحِيحِ وُجِدَ مَا يُعَارِضُ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ مِنْ الْمَجْهُولَاتِ لَا مِنْ الْمَعْقُولَاتِ وَقَدْ بُسِطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ»

ثم قال: «وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنْ (صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى) مَا قَدْ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ كَمَا يُعْلَمُ أَنَّهُ عَالِمٌ وَأَنَّهُ قَادِرٌ وَأَنَّهُ حَيٌّ ؛ كَمَا أَرْشَدَ إلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ وَقَدْ اتَّفَقَ النُّظَّارُ مِنْ مُثْبِتَةِ الصِّفَاتِ: عَلَى أَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ عِنْدَ الْمُحَقِّقِينَ بَلْ وَكَذَلِكَ الْحُبُّ وَالرِّضَا وَالْغَضَبُ. يُمْكِنُ إثْبَاتُهُ بِالْعَقْلِ وَكَذَلِكَ عُلُوُّهُ عَلَى الْمَخْلُوقَاتِ وَمُبَايَنَتُهُ لَهَا مِمَّا يُعْلَمُ كَمَا أَثْبَتَتْهُ بِذَلِكَ الْأَئِمَّةُ: مِثْلُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِهِ، وَمِثْلُ : عَبْدِ الْعَالِي الْمَكِّيِّ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كِلَابٍ» «بَلْ وَكَذَلِكَ إمْكَانُ الرُّؤْيَةِ : يَثْبُتُ بِالْعَقْلِ لَكِنْ مِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ تَصِحُّ رُؤْيَتُهُ وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ»

دليلهم الأول: أن كل موجود تصح رؤيته.

دليلهم الثاني: «وَمِنْهُمْ مَنْ أَثْبَتَهَا بِأَنَّ كُلَّ قَائِمٍ بِنَفْسِهِ يُمْكِنُ رُؤْيَتُهُ ، وَهَذِهِ الطَّرِيقُ أَصَحُّ مِنْ تِلْكَ

«وَقَدْ يُمْكِنُ إثْبَاتُ الرُّؤْيَةِ بِغَيْرِ هَذَيْنِ الطَّرِيقَيْنِ بِتَقْسِيمٍ دَائِرٍ بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ كَمَا يُقَالُ: إنَّ الرُّؤْيَةَ لَا تَتَوَقَّفُ إلَّا عَلَى أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ - فَإِنَّ مَا لَا يَتَوَقَّفُ إلَّا عَلَى

أُمُورٍ وُجُودِيَّةٍ يَكُونُ الْمَوْجُودُ الْوَاجِبُ الْقَدِيمُ : أَحَقَّ بِهِ مِنْ الْمُمْكِنِ الْمُحْدَثِ»

يقول : «وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّ مِنْ الطُّرُقِ الَّتِي يَسْلُكُهَا الْأَئِمَّةُ وَمَنْ اتَّبَعَهُمْ مِنْ نُظَّارِ السُّنَّةِ فِي هَذَا الْبَابِ: أَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ مَوْصُوفًا بِإِحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ: لَلَزِمَ اتِّصَافُهُ بِالْأُخْرَى فَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْحَيَاةِ لَوُصِفَ بِالْمَوْتِ؛ وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالْقُدْرَةِ لَوُصِفَ بِالْعَجْزِ؛ وَلَوْ لَمْ يُوصَفْ بِالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ لَوُصِفَ بِالصَّمَمِ وَالْخَرَسِ وَالْبُكْمِ »

«وَطَرْدُ ذَلِكَ- يعني قياسا على ذلك- أَنَّهُ لَوْ لَمْ يُوصَفْ بِأَنَّهُ مُبَايِنٌ لِلْعَالَمِ لَكَانَ دَاخِلًا فِيهِ. فَسَلْبُ إحْدَى الصِّفَتَيْنِ الْمُتَقَابِلَتَيْنِ عَنْهُ يَسْتَلْزِمُ ثُبُوتَ الْأُخْرَى»

وَتِلْكَ صِفَةُ نَقْصٍ يُنَزَّهُ عَنْهَا الْكَامِلُ مِنْ الْمَخْلُوقَاتِ - فَتَنْزِيهُ الْخَالِقِ عَنْهَا أَوْلَى وَهَذِهِ الطَّرِيقُ غَيْرُ قَوْلِنَا إنَّ هَذِهِ صِفَاتُ كَمَالٍ يَتَّصِفُ بِهَا الْمَخْلُوقُ؛ فَالْخَالِقُ أَوْلَى - فَإِنَّ طَرِيقَ إثْبَاتِ صِفَاتِ الْكَمَالِ بِأَنْفُسِهَا مُغَايِرٌ لِطَرِيقِ إثْبَاتِهَا بِنَفْيِ مَا يُنَاقِضُهَا» الشاهد أنه يقول: أن الأدلة العقلية على إثبات صفات الكمال هناك أكثر من دليل يمكن إثباتها بها.

الأصل الثاني

يقول: «وَأَمَّا الْأَصْلُ الثَّانِي (وَهُوَ التَّوْحِيدُ فِي الْعِبَادَاتِ) ، ويسمى توحيد الألوهية، ويسمى توحيد القصد والطلب، والتوحيد الطلبي، الْمُتَضَمِّنُ لِلْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَالْقَدَرِ جَمِيعًا - فَنَقُولُ : لَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ »

فالإيمان بالقضاء والقدر متضمن للإيمان بهذه المراتب الأربع: الإيمان بالعلم، والإيمان بالكتابة، والإيمان بعموم المشيئة، والإيمان بعموم الخلق: «فَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّهُ مَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ وَقَدْ عَلِمَ مَا سَيَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ» .

المحاضرة الرابعة والثلاثون

قال: « وَكَتَبَهَا حَيْثُ شَاءَ.

كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: (إنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ)- وهذا دليل على عموم الخلق، وأيضا مما يستدل به على عموم الخلق قول الله عز وجل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، أما عموم المشيئة فيمكن الاستدلال عليها بقوله سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾- وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ كَمَا خَلَقَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لِعِبَادَتِهِ وَبِذَلِكَ أَرْسَلَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ»

ثم قال المؤلف: «وَعِبَادَتُهُ تَتَضَمَّنُ كَمَالَ الذُّلِّ وَالْحُبِّ لَهُ»

العبادة كما عرَّفها شيخ الإسلام في كتابه العبودية هي: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة

هذه العبادة تتضمن أمرين :

الأمر الأول: كمال الذل لله عز وجل، كمال الانقياد، كمال الاستكانة لله عز وجل.

الأمر الثاني: كمال الحب له سبحانه وتعالى

ثم قال : «وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ كَمَالَ طَاعَتِهِ فَأَمَرَ الرُّسُلَ بِإِقَامَةِ الدِّينِ وَأَنْ لَا يَتَفَرَّقُوا فِيهِ وَلِهَذَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: (إنَّا مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ دِينُنَا وَاحِدٌ وَالْأَنْبِيَاءُ إخْوَةٌ لِعَلَّاتٍ وَإِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ لَأَنَا ؛ إنَّهُ لَيْسَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ نَبِيٌّ)»

ثم قال المؤلف: «وَهَذَا الدِّينُ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ - فالأنبياء يتفقون في الإسلام بمفهومه العام- الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ دِينًا غَيْرَهُ لَا مِنْ الْأَوَّلِينَ وَلَا مِنْ الآخرين فَإِنَّ جَمِيعَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ - قَالَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ نُوحٍ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ (٧١) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا

سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ - وقال عن إبراهيم أبي الأنبياء: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾ هذا هو الشاهد ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١)﴾ - وقال عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ وقال في حواري المسيح: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١)﴾ - ثم ذكر عموم الأنبياء في قوله سبحانه: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ وقال عن بلقيس أنها قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٤)﴾- فَالْإِسْلَامُ يَتَضَمَّنُ الِاسْتِسْلَامَ لِلهِ وَحْدَهُ -

فَمَنْ اسْتَسْلَمَ لَهُ وَلِغَيْرِهِ كَانَ مُشْرِكًا وَمَنْ لَمْ يَسْتَسْلِمْ لَهُ كَانَ مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ وَالْمُشْرِكُ بِهِ وَالْمُسْتَكْبِرُ عَنْ عِبَادَتِهِ كَافِرٌ وَالِاسْتِسْلَامُ لَهُ وَحْدَهُ يَتَضَمَّنُ عِبَادَتَهُ وَحْدَهُ وَطَاعَتَهُ فَهَذَا دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللهُ غَيْرَهُ وَذَلِكَ إِنَّمَا يَكُونُ بِأَنْ يُطَاعَ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ - إذًا حقيقة دين الإسلام هو الاستسلام لله وحده بعبادته وحده لا شريك، وطاعته كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت، وهذه هي حقيقة دين الرسل ودعوة الرسل

؛ فَإِذَا أَمَرَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ ثُمَّ أَمَرَنَا ثَانِيًا بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَةِ : كَانَ كُلٌّ مِنَ الْفِعْلَيْنِ حِينَ أَمَرَ بِهِ دَاخِلًا فِي الْإِسْلَامِ» .

المحاضرة الخامسة والثلاثون

فَالدِّينُ هُوَ الطَّاعَةُ وَالْعِبَادَةُ لَهُ فِي الْفِعْلَيْنِ وَإِنَّمَا تَنَوَّعُ بَعْضِ صُوَرِ الْفِعْلِ وَهُوَ وَجْهَةُ الْمُصَلِّي فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ دِينُهُمْ وَاحِدٌ وَإِنْ تَنَوَّعَتِ الشِّرْعَةُ وَالْمِنْهَاجُ وَالْوَجْهَةُ وَالْمَنْسَكُ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَمْنَعُ أَنْ يَكُونَ الدِّينُ وَاحِدًا كَمَا لَمْ يَمْنَعْ ذَلِكَ فِي شَرِيعَةِ الرَّسُولِ الْوَاحِدِ»

يقول المؤلف: «وَاللهُ تَعَالَى جَعَلَ مِنْ دِينِ الرُّسُلِ: أَنَّ أَوَّلَهُمْ يُبَشِّرُ بِآخِرِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ وَآخِرَهُمْ يُصَدِّقُ بِأَوَّلِهِمْ وَيُؤْمِنُ بِهِ - قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (لَمْ يَبْعَثِ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقَ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُوَ حَيٌّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرَنَّهُ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَاءٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَيَنْصُرُنَّهُ وَقَالَ تَعَالَى :﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ وَجَعَلَ الْإِيمَانَ مُتَلَازِمًا - وهذا هو الأمر الثالث من الأمور الدالة على أن دين الأنبياء واحد ؛ أي : أن من آمن ببعض لزمه الإيمان بالجميع ومن كفر ببعضهم فقد كفر بالجميع- وَكَفَّرَ مَنْ قَالَ : إِنَّهُ آمَنَ بِبَعْضٍ وَكَفَرَ بِبَعْضٍ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٨٥)﴾

وَقَدْ قَالَ لَنَا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧)﴾ :

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ فَأَمَرَنَا أَنْ نَقُولَ : آمَنَّا بِهَذَا كُلِّهِ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَمَنْ بَلَغَتْهُ رِسَالَةُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ يُقِرَّ بِمَا جَاءَ بِهِ لَمْ يَكُنْ مُسْلِمًا وَلَا مُؤْمِنًا ؛ بَلْ يَكُونُ كَافِرًا وَإِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ أَوْ مُؤْمِنٌ.

إذًا عندنا ثلاثة أمور تدل على أن دين الرسل واحد ذكرها الشيخ فيما ذكر سابقا:

١- أن حقيقة دعوتهم واحدة وهي حقيقة الإسلام، أصل دعوة الرسل والأنبياء واحد.

٢- أن أولهم يبشر بآخرهم ويؤمن به، وآخرهم يصدق بأولهم ويؤمن به.

٣- أن الإيمان بهم متلازم؛ فمن كفر بأحدهم فقد كفر بالجميع ومن آمن بأحدهم لزمه الإيمان بالجميع.

يقول المؤلف: كَمَا ذَكَرُوا أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ قَالَتْ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى: فَنَحْنُ مُسْلِمُونَ: فَأَنْزَلَ اللهُ : ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ فَقَالُوا: – أي اليهود والنصارى- لَا نَحُجُّ – لأن هذا من الشرائع التي جاء بها النبي صلى الله عليه وسلم- فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ – حكم عليهم بالكفر؛ لأنهم لم يستسلموا للنبي صلى الله عليه وسلم فيما أمر به من الحج. – فَإِنَّ الِاسْتِسْلَامَ لِلَّهِ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِالْإِقْرَارِ بِمَا لَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ حِجِّ الْبَيْتِ ؛ كَمَا قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ ، وَحَجِّ الْبَيْتِ) وَلِهَذَا لَمَّا وَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَفَةَ أَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾» .

يقول المؤلف: «وَقَدْ تَنَازَعَ النَّاسُ فِيمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ أُمَّةِ مُوسَى وَعِيسَى، هَلْ هُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ لَا؟ وَهُوَ نِزَاعٌ لَفْظِيٌّ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ الْخَاصَّ الَّذِي بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحَمَّدًا صلى الله عليه وسلم – وَالْإِسْلَامُ الْيَوْمَ عِنْدَ الْإِطْلَاقِ يَتَنَاوَلُ هَذَا وَأَمَّا الْإِسْلَامُ الْعَامُّ الْمُتَنَاوِلُ لِكُلِّ شَرِيعَةٍ بَعَثَ اللهُ بِهَا نَبِيًّا فَإِنَّهُ يَتَنَاوَلُ إِسْلَامَ كُلِّ أُمَّةٍ مُتَّبِعَةٍ لِنَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ

المحاضرة السادسة والثلاثون

قال المؤلف: «وَرَأْسُ الْإِسْلَامِ مُطْلَقًا شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَبِهَا بُعِثَ جَمِيعُ الرُّسُلِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ- هذا معنى لا إله- إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ – هذا معنى إلا الله عز وجل- وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي -هذا لا إله- إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾- هذا معنى إلا الله وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ – ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ هذا معنى لا إله، ﴿حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ هذا معنى إلا الله.- وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ وَذَكَرَ عَنْ رُسُلِهِ: كَنُوحٍ وَهُودٍ وَصَالِحٍ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُمْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَقَالَ عَنْ أَهْلِ الْكَهْفِ:﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا

يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا (١٥)﴾»

قال المؤلف: «وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي مَوْضِعَيْنِ مِنْ كِتَابِهِ الشرك هو: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله،

أما الشرك في توحيد العبادة توحيد الألوهية الذي جاءت به الرسل بأن يصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله سبحانه

وَقَدْ بَيَّنَ فِي كِتَابِهِ الشِّرْكَ بِالْمَلَائِكَةِ ، وَالشِّرْكَ بِالْأَنْبِيَاءِ ، وَالشِّرْكَ بِالْكَوَاكِبِ ، وَالشِّرْكَ بِالْأَصْنَامِ وَأَصْلُ الشِّرْكِ؛ الشِّرْكُ بِالشَّيْطَانِ فَقَالَ عَنِ النَّصَارَى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ - فَبَيَّنَ أَنَّ اتِّخَاذَ الْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا كُفْرٌ وَمَعْلُومٌ أَنَّ أَحَدًا مِنَ الْخَلْقِ لَمْ يَزْعُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ وَالْأَحْبَارَ وَالرُّهْبَانَ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ شَارَكُوا اللهَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَلْ وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ أَنَّ الْعَالَمَ لَهُ صَانِعَانِ مُتَكَافِئَانِ فِي الصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ بَلْ وَلَا أَثْبَتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَهًا مُسَاوِيًا لِلهِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ. وَلَا أَثْبَتَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي آدَمَ إِلَهًا مُسَاوِيًا لِلهِ فِي جَمِيعِ صِفَاتِهِ بَلْ عَامَّةُ الْمُشْرِكِينَ بِاللهِ : مُقِرُّونَ بِأَنَّهُ لَيْسَ شَرِيكُهُ مِثْلَهُ بَلْ عَامَّتُهُمْ يُقِرُّونَ أَنَّ الشَّرِيكَ مَمْلُوكٌ لَهُ سَوَاءٌ كَانَ مَلَكًا أَوْ نَبِيًّا أَوْ كَوْكَبًا أَوْ صَنَمًا ؛ كَمَا كَانَ مُشْرِكُو الْعَرَبِ يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتِهِمْ: (لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ) فَأَهَلَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالتَّوْحِيدِ وَقَالَ: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ وَالنِّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ)

يقول: وَقَدْ ذَكَرَ أَرْبَابُ الْمَقَالَاتِ: مَا جَمَعُوا مِنْ مَقَالَاتِ الْأَوَّلِينَ والآخرين فِي الْمِلَلِ وَالنِّحَلِ وَالْآرَاءِ فَلَمْ يَنْقُلُوا عَنْ أَحَدٍ إِثْبَاتَ شَرِيكٍ مُشَارِكٍ لَهُ فِي خَلْقِ جَمِيعِ وَلَا مُمَاثِلَ لَهُ فِي جَمِيعِ الصِّفَاتِ بَلْ مِنْ أَعْظَمِ مَا نَقَلُوا فِي ذَلِكَ قَوْلَ الثَّنَوِيَّةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ بِالْأَصْلَيْنِ - الثَّنَوية هم المجوس، سموا بالثنوية؛ لأنهم يقولون بإلهين اثنين النُّورِ والظُّلْمَةِ وَأَنَّ النُّورَ خَلَقَ الْخَيْرَ ، وَالظُّلْمَةَ خَلَقَتِ الشَّرَّ ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُمْ فِي الظُّلْمَةِ قَوْلَيْنِ: أَحَدُهُمَا: أَنَّهَا مُحْدَثَةٌ فَتَكُونُ مِنْ جُمْلَةِ الْمَخْلُوقَاتِ لَهُ وَالثَّانِي: أَنَّهَا قَدِيمَةٌ لَكِنَّهَا لَمْ تَفْعَلْ إِلَّا الشَّرَّ فَكَانَتْ نَاقِصَةً فِي ذَاتِهَا وَصِفَاتِهَا وَمَفْعُولَاتِهَا عَنِ النُّورِ وَقَدْ أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنِ الْمُشْرِكِينَ مِنْ إِقْرَارِهِمْ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ الْمَخْلُوقَاتِ مَا بَيَّنَهُ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ : ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ . - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩)﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا

لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾» وهذه الآية دليل على أنهم يؤمنون بالله لكنهم يشركون معه كما قال ابن عباس وغيره.

يقول المؤلف: «وَبِهَذَا وَغَيْرِهِ - سيبين المؤلف السبب الذي أورد فيه هذه المسألة: أن المشركين كانوا يعترفون ويقرون بتوحيد الربوبية، وأنه لم ينقل عن أحد من الأمم أنه أثبت شريكًا مساويًا لله عز وجل في عبادته أو في صفاته - يُعْرَفُ مَا وَقَعَ مِنْ الْغَلَطِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ فَإِنَّ عَامَّةَ الْمُتَكَلِّمِينَ - المتكلمون الذين هم: الأشاعرة، المعتزلة، الكلابية، الجهمية - الَّذِينَ يُقَرِّرُونَ التَّوْحِيدَ فِي كُتُبِ الْكَلَامِ وَالنَّظَرِ غَايَتُهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا التَّوْحِيدَ ثَلَاثَةَ أَنْوَاعٍ

فَيَقُولُونَ: هُوَ وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَا قَسِيمَ لَهُ ، وَوَاحِدٌ فِي صِفَاتِهِ لَا شَبِيهَ لَهُ ، وَوَاحِدٌ فِي أَفْعَالِهِ لَا شَرِيكَ لَهُ –

فأعظم أنواع التوحيد الذي اتفقت الرسل في تحقيقه ودعوة الناس إليه لا وجود له عند المتكلمين-

المحاضرة السابعة والثلاثون

يقول المؤلف: «وَأَشْهَرُ الْأَنْوَاعِ الثَّلَاثَةِ عِنْدَهُمْ هُوَ الثَّالِثُ وَهُوَ (تَوْحِيدُ الْأَفْعَالِ) وَهُوَ أَنَّ خَالِقَ الْعَالَمِ وَاحِدٌ وَهُمْ يَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ دَلَالَةِ التَّمَانُعِ وَيَظُنُّونَ أَنَّ هَذَا هُوَ التَّوْحِيدُ الْمَطْلُوبُ وَأَنَّ هَذَا هُوَ مَعْنَى قَوْلِنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - حَتَّى قَدْ يَجْعَلُوا مَعْنَى الْإِلَهِيَّةِ الْقُدْرَةَ عَلَى الِاخْتِرَاعِ- .

إذًا خطأ المتكلمين في توحيد الربوبية:

الخطأ الأول: ظنهم أنه هو المطلوب من المكلفين، وهو المقصود بدعوة الرسل، فيزعمون أن هذا هو النوع المطلوب تحقيقه من المكلفين وهو المقصود بدعوة الرسل.

الخطأ الثاني: ظنهم أن هذا التوحيد هو معنى لا إله إلا الله ، إذ معنى لا إله إلا الله لا خالق إلا الله.

الخطأ الثالث :أنهم جعلوه هو الغاية وأهملوا توحيد العبادة -

وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مِنْ الْعَرَبِ الَّذِينَ بُعِثَ إلَيْهِمْ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلًا : لَمْ يَكُونُوا يُخَالِفُونَهُ فِي هَذَا بَلْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إنَّهُمْ كَانُوا يُقِرُّونَ بِالْقَدَرِ أَيْضًا وَهُمْ مَعَ هَذَا مُشْرِكُونَ» .

يقول المؤلف: «فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنْ لَيْسَ فِي الْعَالَمِ مَنْ يُنَازِعُ فِي أَصْلِ هَذَا الشِّرْكِ وَلَكِنْ غَايَةُ مَا يُقَالُ: إنَّ مِنْ النَّاسِ مَنْ جَعَلَ بَعْضَ الْمَوْجُودَاتِ خَلْقًا لِغَيْرِ اللَّهِ كَالْقَدَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ؛ لَكِنَّ هَؤُلَاءِ يُقِرُّونَ بِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْعِبَادِ وَخَالِقُ قُدْرَتِهِمْ وَإِنْ قَالُوا إنَّهُمْ خَلَقُوا أَفْعَالَهُمْ وَكَذَلِكَ أَهْلُ الْفَلْسَفَةِ وَالطَّبْعِ وَالنُّجُومِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ أَنَّ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ مُبْدِعَةٌ لِبَعْضِ الْأُمُورِ هُمْ مَعَ الْإِقْرَارِ بِالصَّانِعِ يَجْعَلُونَ هَذِهِ الْفَاعِلَاتِ مَصْنُوعَةً مَخْلُوقَةً وَلَا يَقُولُونَ إنَّهَا غَنِيَّةٌ عَنْ الْخَالِقِ مُشَارِكَةٌ لَهُ فِي الْخَلْقِ . فَأَمَّا مَنْ أَنْكَرَ الصَّانِعَ فَذَاكَ جَاحِدٌ مُعَطِّلٌ لِلصَّانِعِ كَالْقَوْلِ الَّذِي أَظْهَرَ فِرْعَوْنُ وَالْكَلَامُ الْآنَ مَعَ الْمُشْرِكِينَ بِاَللَّهِ الْمُقِرِّينَ بِوُجُودِهِ .- فَإِنَّ هَذَا التَّوْحِيدَ - توحيد الربوبية- الَّذِي قَرَّرُوهُ - لَا يُنَازِعُهُمْ فِيهِ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكُونَ بَلْ يُقِرُّونَ بِهِ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ كَمَا ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَكَمَا عُلِمَ بِالِاضْطِرَارِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ»

يقول المؤلف: «وَكَذَلِكَ (النَّوْعُ الثَّانِي) - وَهُوَ قَوْلُهُمْ : لَا شَبِيهَ لَهُ فِي صِفَاتِهِ - فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأُمَمِ مَنْ أَثْبَتَ قَدِيمًا مُمَاثِلًا لَهُ فِي ذَاتِهِ سَوَاءٌ قَالَ إنَّهُ يُشَارِكُهُ ، أَوْ قَالَ: إنَّهُ لَا فِعْلَ لَهُ ؛ بَلْ مَنْ شَبَّهَ بِهِ شَيْئًا مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ فَإِنَّمَا يُشَبِّهُهُ بِهِ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ - وَقَدْ عُلِمَ بِالْعَقْلِ امْتِنَاعُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مِثْلٌ فِي الْمَخْلُوقَاتِ ،شَارِكُهُ فِيمَا يَجِبُ أَوْ يَجُوزُ أَوْ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَسْتَلْزِمُ الْجَمْعَ بَيْنَ النَّقِيضَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَعُلِمَ أَيْضًا بِالْعَقْلِ أَنَّ كُلَّ مَوْجُودَيْنِ قَائِمَيْنِ بِأَنْفُسِهِمَا فَلَا بُدَّ بَيْنَهُمَا مِنْ قَدْرٍ مُشْتَرَكٍ - كَاتِّفَاقِهِمَا فِي مُسَمَّى الْوُجُودِ وَالْقِيَامِ بِالنَّفْسِ وَالذَّاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ فَإِنَّ نَفْيَ ذَلِكَ يَقْتَضِي التَّعْطِيلَ الْمَحْضَ وَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ إثْبَاتِ خَصَائِصِ الرُّبُوبِيَّةِ وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ»

« ثُمَّ إِنَّ الجهمية مِنْ الْمُعْتَزِلَةِ وَغَيْرِهِمْ أَدْرَجُوا نَفْيَ الصِّفَاتِ فِي مُسَمَّى التَّوْحِيدِ فَصَارَ مَنْ قَالَ : إنَّ لِلَّهِ عِلْمًا أَوْ قُدْرَةً أَوْ إنَّهُ يُرَى فِي الْآخِرَةِ أَوْ إنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ يَقُولُونَ : إنَّهُ مُشَبَّهٌ لَيْسَ بِمُوَحِّدٍ وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الْفَلَاسِفَةِ وَالْقَرَامِطَةِ فَنَفَوْا أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَى

- يعني التوحيد عند الجهمية والقرامطة والفلاسفة نفي أسماء الله الحسنى - وَقَالُوا : مَنْ قَالَ إنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ عَزِيزٌ حَكِيمٌ: فَهُوَ مُشَبِّهٌ لَيْسَ بِمُوَحِّدٍ - وَزَادَ عَلَيْهِمْ غُلَاةُ الْغُلَاةِ وَقَالُوا : لَا يُوصَفُ بِالنَّفْيِ وَلَا الْإِثْبَاتِ ؛ لِأَنَّ فِي كُلٍّ مِنْهُمَا تَشْبِيهًا لَهُ وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ وَقَعُوا مِنْ جِنْسِ التَّشْبِيهِ فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِمَّا فَرُّوا مِنْهُ فَإِنَّهُمْ شَبَّهُوهُ بِالْمُمْتَنِعَاتِ وَالْمَعْدُومَاتِ وَالْجَمَادَاتِ فِرَارًا مِنْ تَشْبِيهِهِمْ - بِزَعْمِهِمْ - لَهُ بِالْأَحْيَاءِ وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذِهِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةَ لِلَّهِ لَا تَثْبُتُ لَهُ عَلَى حَدِّ مَا يَثْبُتُ لِمَخْلُوقٍ أَصْلًا وَهُوَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ لَا فِي ذَاتِهِ وَلَا فِي صِفَاتِهِ وَلَا فِي أَفْعَالِهِ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ إثْبَاتِ الذَّاتِ وَإِثْبَاتِ الصِّفَاتِ ؛ فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي إثْبَاتِ الذَّاتِ إثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لِلذَّوَاتِ : لَمْ يَكُنْ فِي إثْبَاتِ الصِّفَاتِ إثْبَاتُ مُمَاثَلَةٍ لَهُ فِي ذَلِكَ فَصَارَ هَؤُلَاءِ الجهمية الْمُعَطِّلَةُ يَجْعَلُونَ هَذَا تَوْحِيدًا وَيَجْعَلُونَ مُقَابِلَ ذَلِكَ التَّشْبِيهَ، وَيُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمْ الْمُوَحِّدِينَ

مناقشتهم في النوع الثالث أن الله واحد في ذاته لا قسيم له.

يقول المؤلف: «وَكَذَلِكَ (النَّوْعُ الثَّالِثُ) وَهُوَ قَوْلُهُمْ: هُوَ وَاحِدٌ لَا قَسِيمَ لَهُ فِي ذَاتِهِ أَوْ لَا جُزْءَ لَهُ أَوْ لَا بَعْضَ لَهُ ؛ لَفْظٌ مُجْمَلٌ - فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَحَدٌ صَمَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ؛ فَيَمْتَنِعُ عَلَيْهِ أَنْ يَتَفَرَّقَ أَوْ يَتَجَزَّأَ أَوْ يَكُونَ قَدْ رُكِّبَ مِنْ أَجْزَاءٍ لَكِنَّهُمْ يُدْرِجُونَ فِي هَذَا اللَّفْظِ نَفْيَ عُلُوِّهِ عَلَى عَرْشِهِ وَمُبَايَنَتَهُ لِخَلْقِهِ وَامْتِيَازَهُ عَنْهُمْ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِنْ الْمَعَانِي الْمُسْتَلْزِمَةِ لِنَفْيِهِ وَتَعْطِيلِهِ وَيَجْعَلُونَ ذَلِكَ مِنْ التَّوْحِيدِ فَقَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ مَا يُسَمُّونَهُ (تَوْحِيدًا) فِيهِ مَا هُوَ حَقٌّ ، وَفِيهِ مَا هُوَ بَاطِلٌ وَلَوْ كَانَ جَمِيعُهُ حَقًّا فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ إذَا أَقَرُّوا بِذَلِكَ كُلِّهِ لَمْ يَخْرُجُوا مِنْ الشِّرْكِ الَّذِي وَصَفَهُمْ بِهِ فِي الْقُرْآنِ وَقَاتَلَهُمْ عَلَيْهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ لَا بُدَّ أَنْ يَعْتَرِفُوا أَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَلَيْسَ الْمُرَادُ (بِالْإِلَهِ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ) - كَمَا ظَنَّهُ مَنْ ظَنَّهُ مِنْ أَئِمَّةِ الْمُتَكَلِّمِينَ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّ الْإِلَهِيَّةَ هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ دُونَ غَيْرِهِ وَأَنَّ مَنْ أَقَرَّ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى الِاخْتِرَاعِ دُونَ غَيْرِهِ فَقَدْ شَهِدَ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ - فَإِنَّ الْمُشْرِكِينَ كَانُوا يُقِرُّونَ بِهَذَا وَهُمْ مُشْرِكُونَ كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ - بَلْ الْإِلَهُ الْحَقُّ هُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ بِأَنْ يُعْبَدَ فَهُوَ إلَهٌ بِمَعْنَى مَأْلُوهٍ لَا إلَهَ بِمَعْنَى آلِهَةٍ ؛ وَالتَّوْحِيدُ أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالْإِشْرَاكُ أَنْ يُجْعَلَ مَعَ اللَّهِ إلَهًا آخَرَ» .إذًا معنى لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله.

يقول المؤلف: «وَإِذَا تَبَيَّنَ أَنَّ غَايَةَ مَا يُقَرِّرُهُ هَؤُلَاءِ النُّظَّارُ ؛ أَهْلُ الْإِثْبَاتِ لِلْقَدَرِ الْمُنْتَسِبُونَ إلَى السُّنَّةِ إنَّمَا هُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ وَأَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَعَ هَذَا فَالْمُشْرِكُونَ كَانُوا مُقِرِّينَ بِذَلِكَ مَعَ أَنَّهُمْ مُشْرِكُونَ وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ غَايَةُ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ التَّوْحِيدِ هُوَ شُهُودُ هَذَا التَّوْحِيدِ - يقول: أيضًا المتصوفة غاية ما عندهم أن يحقق الإنسان توحيد الربوبية؛ أي : الإقرار والاعتراف به لا ينجي من عذاب الله وحده؛ بل لابد معه من الاعتراف والإقرار بتوحيد الألوهية - وَأَنْ يَشْهَدَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ» .

المحاضرة الثامنة والثلاثون

يقول المؤلف: «وَكَذَلِكَ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمُنْتَسِبِينَ إلَى الْمَعْرِفَةِ وَالتَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ غَايَةُ مَا عِنْدَهُمْ مِنْ التَّوْحِيدِ هُوَ شُهُودُ هَذَا التَّوْحِيدِ - أي توحيد الربوبية وهو:- وَأَنْ يَشْهَدَ أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ لَا سِيَّمَا إذَا غَابَ الْعَارِفُ عندهم بِمَوْجُودِهِ عَنْ وُجُودِهِ، وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ ، وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ،

وَدَخَلَ فِي فَنَاءِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، بِحَيْثُ يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ، وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ إِذَا غَابَ الْعَارِفُ بِمَوْجُودِهِ عَنْ وَجُودِهِ - وَبِمَشْهُودِهِ عَنْ شُهُودِهِ وَبِمَعْرُوفِهِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَدَخَلَ فِي فَنَاءِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ بِحَيْثُ يَفْنَى مَنْ لَمْ يَكُنْ وَيَبْقَى مَنْ لَمْ يَزَلْ فَهَذَا عِنْدَهُمْ هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي لَا غَايَةَ وَرَاءَهَا وَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا هُوَ تَحْقِيقُ مَا أَقَرَّ بِهِ الْمُشْرِكُونَ مِنَ التَّوْحِيدِ وَلَا يَصِيرُ الرَّجُلُ بِمُجَرَّدِ هَذَا التَّوْحِيدِ مُسْلِمًا فَضْلًا عَنْ أَنْ يَكُونَ وَلِيًّا لِلَّهِ أَوْ مِنْ سَادَاتِ الْأَوْلِيَاءِ وَطَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالْمَعْرِفَةِ: يُقَرِّرُونَ هَذَا التَّوْحِيدَ مَعَ إِثْبَاتِ الصِّفَاتِ فَيَفْنَوْنَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ مَعَ إِثْبَاتِ الْخَالِقِ لِلْعَالَمِ الْمُبَايِنِ لِمَخْلُوقَاتِهِ وَآخَرُونَ يَضُمُّونَ هَذَا إِلَى نَفْيِ الصِّفَاتِ فَيَدْخُلُونَ فِي التَّعْطِيلِ مَعَ هَذَا وَهَذَا شَرٌّ مِنْ حَالِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

يقول المؤلف : «وَكَانَ جَهْمٌ يَنْفِي الصِّفَاتِ وَيَقُولُ بِالْجَبْرِ فَهَذَا تَحْقِيقُ قَوْلِ جَهْمٍ؛ لَكِنَّهُ إِذَا أَثْبَتَ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالثَّوَابَ وَالْعِقَابَ فَارَقَ الْمُشْرِكِينَ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ لَكِنَّ جَهْمًا وَمَنْ اتَّبَعَهُ يَقُولون فَيَضْعُفُ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ عِنْدَهُ والنجارية والضرارية وَغَيْرُهُمْ يَقْرَبُونَ مِنْ جَهْمٍ فِي مَسَائِلِ الْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ، مَعَ مُقَارَبَتِهِمْ لَهُ أَيْضًا فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ - والنجارية أتباع أبي عبد الله الحسين بن محمد النجار ، والضرارية أتباع ضرار بن عمرو القاضي- يَقْرَبُونَ مِنْ جَهْمٍ فِي مَسَائِلِ الْقَدَرِ - فهم جبرية- وَالْإِيمَانِ فهم مرجئة؛ لأن مذهب الجهم في مسألة الإيمان الإرجاء - مَعَ مُقَارَبَتِهِمْ لَهُ أَيْضًا فِي نَفْيِ الصِّفَاتِ - .

المباينة لبعض فرق أهل الضلال:-

والكلابية وَالْأَشْعَرِيَّةُ: خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ فَإِنَّهُمْ يُثْبِتُونَ لِلَّهِ الصِّفَاتِ الْعَقْلِيَّةَ -الصفات السبع - وَأَئِمَّتُهُمْ يُثْبِتُونَ الصِّفَاتِ الْخَبَرِيَّةَ فِي الْجُمْلَةِ - أي: المتقدمون من أئمتهم كأبي الحسن الأشعري والباقلاني وغيرهما يثبتون بعض الصفات الخبرية خاصةً الثابتة في القرآن كالوجه واليدين ونحو ذلك؛ لكن جمهور الأشاعرة يخالفون فينفون ماعدا الصفات السبع- كَمَا فُصِّلَتْ أَقْوَالُهُمْ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ، وَأَمَّا فِي بَابِ الْقَدَرِ وَمَسَائِلِ الْأَسْمَاءِ وَالْأَحْكَامِ فَأَقْوَالُهُمْ مُتَقَارِبَةٌ

والكلابية هُمْ أَتْبَاعُ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كِلَابٍ الَّذِي سَلَكَ الْأَشْعَرِيُّ خُطَّتَهُ وَأَصْحَابُ ابْنُ كِلَابٍ كَالْحَارِثِ الْمُحَاسَبِيِّ، وَأَبِي الْعَبَّاسِ القلانسي وَنَحْوِهِمَا خَيْرٌ مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ فِي هَذَا - خيرٌ منهم في باب الصفات وفي باب الإرجاء باب الأسماء والأحكام وفي باب القدر- فَكُلَّمَا كَانَ الرَّجُلُ إِلَى السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةِ أَقْرَبَ كَانَ قَوْلُهُ أَعْلَى وَأَفْضَلَ

والكرامية - أتباع أبي عبد الله محمد بن كرام قولهم في الإيمان قول منكر - قَوْلُهُمْ فِي الْإِيمَانِ قَوْلٌ مُنْكَرٌ لَمْ يَسْبِقْهُمْ إِلَيْهِ أَحَدٌ حَيْثُ جَعَلُوا الْإِيمَانَ قَوْلَ اللِّسَانِ وَإِنْ كَانَ مَعَ عَدَمِ تَصْدِيقِ الْقَلْبِ فَيَجْعَلُونَ الْمُنَافِقَ مُؤْمِنًا؛ لَكِنَّهُ يَخْلُدُ فِي النَّارِ فَخَالَفُوا الْجَمَاعَةَ فِي الِاسْمِ دُونَ الْحُكْمِ وَأَمَّا فِي الصِّفَاتِ وَالْقَدَرِ وَالْوَعِيدِ فَهُمْ أَشْبَهُ مِنْ أَكْثَرِ طَوَائِفِ الْكَلَامِ الَّتِي فِي أَقْوَالِهَا مُخَالَفَةٌ لِلسُّنَّةِ» بمعنى أنهم أقرب، الكرامية في مسألة القدر والوعد والوعيد هم أقرب لأهل السنة من الطوائف الأخرى.

يقول المؤلف: «وَأَمَّا الْمُعْتَزِلَةُ فَهُمْ يَنْفُونَ الصِّفَاتِ وَيُقَارِبُونَ قَوْلَ جَهْمٍ - يعني يوافقون جهم في القول بنفي الصفات - لَكِنَّهُمْ يَنْفُونَ الْقَدَرَ - بمعنى ينفون عموم مشيئة الله وعموم خلقه - فَهُمْ وَإِنْ عَظَّمُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ ؛ وَغَلَوْا فِيهِ، فَهُمْ يُكَذِّبُونَ بِالْقَدَرِ فَفِيهِمْ نَوْعٌ مِنَ الشِّرْكِ مِنْ هَذَا الْبَابِ وَالْإِقْرَارُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ مَعَ إِنْكَارِ الْقَدَرِ خَيْرٌ مِنَ الْإِقْرَارِ بِالْقَدَرِ مَعَ إِنْكَارِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ.-

مقارنة بين المعتزلة والجهمية:

يقول: المعتزلة خير من الجهمية؛ لأنهم يقرون بالأمر والنهي والوعد والوعيد وإن كانوا يكذبون بالقدر، بخلاف الجهمية يثبتون القدر لكنهم يكذبون بالأمر

والنهي والوعد والوعيد. -

وَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ فِي زَمَنِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ مَنْ يَنْفِي الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ –

الميزان الذي نعرف أن القدرية أخف بدعة من الجهمية:

القدرية ظهروا قبل الجهمية ظهروا في زمن الصحابة، وكلما كلما كانت البدعة أقرب إلى زمن النبوة كلما كانت أخف، وكلما ابتعد ظهورها عن زمن النبوة كلما كانت أسوأ، وهذه قاعدة أخرى، فإنكار الأمر والنهي والوعد والوعيد هذا لم يظهر إلا متأخرًا بعد زمن الصحابة بخلاف إنكار القدر فإنه ظهر في زمن الصحابة. -

وَلكن قَدْ نَبَغَ فِيهِمْ الْقَدَرِيَّةُ كَمَا نَبَغَ فِيهِمْ الْخَوَارِجُ الحرورية - أي ظهر في زمن الصحابة الخوارج والقدرية- وَإِنَّمَا يَظْهَرُ مِنْ الْبِدَعِ أَوَّلًا مَا كَانَ أَخْفَى وَكُلَّمَا ضَعُفَ مَنْ يَقُومُ بِنُورِ النُّبُوَّةِ قَوِيَتْ الْبِدْعَةُ»

يقول المؤلف: «فَهَؤُلَاءِ الْمُتَصَوِّفُونَ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ الْحَقِيقَةَ الْكَوْنِيَّةَ؛ مَعَ إعْرَاضِهِمْ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ شَرٌّ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ مَعَ إعْرَاضِهِمْ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ - شَرٌّ مِنْ الْقَدَرِيَّةِ الْمُعْتَزِلَةِ وَنَحْوِهِمْ –

مقارنة بين المتصوفة والمعتزلة :

المعتزلة كونهم يشهدون الحقيقة الكونية أن كل شيء جرى إنما هو بخلق الله وقدره ومشيئته يضعف عندهم الأمر والنهي؛ ولهذا هم شرٌ من القدرية المعتزلة ونحوهم-

أُولَئِكَ يُشْبِهُونَ الْمَجُوسَ وَهَؤُلَاءِ يُشْبِهُونَ الْمُشْرِكِينَ - القدرية شبههم بالمجوس؛ لأنهم أثبتوا خالقين مع الله، والمجوس قالوا: أن خالق العالم اثنين.

وَهَؤُلَاءِ يُشْبِهُونَ الْمُشْرِكِينَ- أي المتصوفة الذين يشهدون الحقيقة الكونية ويضعف عندهم الأمر والنهي يشبههم بالمشركين - الَّذِينَ قَالُوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ وَالْمُشْرِكُونَ شَرٌّ مِنْ الْمَجُوسِ - بلا شك ولهذا النبي صلى الله عليه وسلم قال في المجوس: (سنوا بهم سنة أهل الكتاب) فتؤخذ منهم الجزية بخلاف المشركين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف.

فَهَذَا أَصْلٌ عَظِيمٌ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَعْرِفَهُ ؛ فَإِنَّهُ أَصْلُ الْإِسْلَامِ الَّذِي يَتَمَيَّزُ بِهِ أَهْلُ الْإِيمَانِ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بالوحدانية وَالرِّسَالَةِ شَهَادَةِ أَنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ. وَقَدْ وَقَعَ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ فِي الْإِخْلَالِ بِحَقِيقَةِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ- الذين هما شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله - أَوْ أَحَدِهِمَا مَعَ ظَنِّهِ أَنَّهُ فِي غَايَةِ التَّحْقِيقِ وَالتَّوْحِيدِ وَالْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَإِقْرَارُ الْمُشْرِكِ بِأَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ وَخَالِقُهُ لَا يُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إنْ لَمْ يَقْتَرِنْ بِهِ إقْرَارُهُ بِأَنَّهُ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ فَلَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ أَحَدٌ إلَّا هُوَ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَيَجِبُ تَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ وَطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ فَلَا بُدَّ مِنْ الْكَلَامِ فِي هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ»

يقول المؤلف: «الْأَصْلُ الْأَوَّلُ: (تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ) فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ أَخْبَرَ عَنْ الْمُشْرِكِينَ كَمَا تَقَدَّمَ بِأَنَّهُمْ أَثْبَتُوا وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ اللَّهِ يَدْعُونَهُمْ وَيَتَّخِذُونَهُمْ شُفَعَاءَ بِدُونِ إذْنِ اللَّهِ فَأَخْبَرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا هَؤُلَاءِ شُفَعَاءَ مُشْرِكُونَ وَقَالَ تَعَالَى عَنْ مُؤْمِنِ يس: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥)﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٩٤)﴾ - فَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ شُفَعَائِهِمْ أَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُمْ فِيهِمْ شُرَكَاءُ ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤)﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ وَقَالَ تَعَالَى:

﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨)﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ: كَانَ قَوْمٌ يَدْعُونَ الْعُزَيْرَ وَالْمَسِيحَ وَالْمَلَائِكَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ يُبَيِّنُ فِيهَا أَنَّ الْمَلَائِكَةَ وَالْأَنْبِيَاءَ يَتَقَرَّبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ»

المحاضرة التاسعة والثلاثون

توقفنا على قول المؤلف: «وَمِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَثْبَتَ لَهُ حَقًّا لَا يُشْرِكُهُ فِيهِ مَخْلُوقٌ؛ كَالْعِبَادَةِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وقال تعالى: ﴿إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وقال تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ(٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦)﴾ -إذًا المطلوب العبادة لله عز وجل إخلاص جميع أنواع العبادة لله عز وجل- وَكُلُّ مِنَ الرُّسُلِ يَقُولُ لِقَوْمِهِ ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى فِي التَّوَكُّلِ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وَقَالَ تَعَالَى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ - إذًا الله عز وجل أمرنا بالتوكل عليه وحده لا شريك له- يقول: فَقَالَ فِي الْإِيتَاءِ: ﴿مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾- لأن الإيتاء هذا متأتي للخلق، أما التوكل فلا يكون إلا على الله - وَقَالَ فِي التَّوَكُّلِ: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ وَلَمْ يَقُلْ: وَرَسُولُهُ ؛ لِأَنَّ الْإِيتَاءَ هُوَ الْإِعْطَاءُ الشَّرْعِيُّ وَذَلِكَ يَتَضَمَّنُ الْإِبَاحَةَ وَالْإِحْلَالَ الَّذِي بَلَّغَهُ الرَّسُولُ -الإيتاء معناه: الإعطاء الشرعي إحلال الحلال وتحريم الحرام وهذا الرسول صلى الله عليه وسلم يطاع فيه استقلالا فيحل ويحرم ونطيعه استقلالًا بخلاف التوكل وهو الحسب فهو على الله عز وجل وحده - فَإِنَّ الْحَلَالَ مَا أَحَلَّهُ وَالْحَرَامَ مَا حَرَّمَهُ - أي الرسول - وَالدِّينَ مَا شَرَعَهُ، قَالَ تَعَالَى ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وَأَمَّا الحسب فَهُوَ الْكَافِي وَاللَّهُ وَحْدَهُ كَافٍ عَبْدَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فَهُوَ وَحْدَهُ حَسْبُهُمْ كُلُّهُمْ ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أَيْ حَسْبُكَ وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ هُوَ اللَّهُ فَهُوَ كَافِيكُمْ كُلَّكُمْ -بمعنى الحسب الكافي فمعنى قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ أي حسبك أنت وحسب من اتبعك هو الله سبحانه وتعالى -وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّ اللَّهَ وَالْمُؤْمِنِينَ حَسْبُكَ كَمَا يَظُنُّهُ بَعْضُ الغالطين إِذْ هُوَ وَحْدَهُ كَافٍ نَبِيَّهُ وَهُوَ حَسْبُهُ لَيْسَ مَعَهُ مَنْ يَكُونُ هُوَ وَإِيَّاهُ حسبًا لِلرَّسُولِ، وَهَذَا فِي اللُّغَةِ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ: (فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكَ سَيْفٌ مُهَنَّدٌ) وَتَقُولُ الْعَرَبُ: (حَسْبُكَ وَزَيْدًا

دِرْهَمٌ) أَيْ: يَكْفِيك وَزَيْدًا جَمِيعًا دِرْهَمٌ-الشاهد: أن معنى الآية حسبك وحسب المؤمنين هو الله عز وجل-

وَقَالَ فِي الْخَوْفِ وَالْخَشْيَةِ وَالتَّقْوَى ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ فَأَثْبَتَ الطَّاعَةَ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَأَثْبَتَ الْخَشْيَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ كَمَا قَالَ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ فَجَعَلَ الْعِبَادَةَ وَالتَّقْوَى لِلَّهِ وَحْدَهُ وَجَعَلَ الطَّاعَةَ لِلرَّسُولِ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُطِعْ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ -الشاهد: إن هذه كلها أدلة تدل على أن هذه العبادات لا تصرف إلا لله عز وجل -وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَقَالَ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)﴾ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وَفِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ : (لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالُوا : وَأَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا هُوَ الشِّرْكُ، أَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ الْعَبْدِ الصَّالِحِ ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾، ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ وَمِنْ هَذَا الْبَابِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ : (مَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشَدَ وَمَنْ يَعْصِهِمَا فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّ إلَّا نَفْسَهُ وَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا) وَقَالَ: (وَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ مُحَمَّدٌ) فَفِي الطَّاعَةِ: قَرَنَ اسْمَ الرَّسُولِ بِاسْمِهِ بِحَرْفِ الْوَاوِ- وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول قرنها (بالواو) لأن طاعة كل واحد منهما طاعة للآخر؛ لكن المشيئة نهى، قال: ما شاء الله ثم شاء محمد والسبب- وَفِي الْمَشِيئَةِ : أَمَرَ أَنْ يُجْعَلَ ذَلِكَ بِحَرْفِ (ثُمَّ) وَذَلِكَ لِأَنَّ طَاعَةَ الرَّسُولِ طَاعَةٌ لِلَّهِ فَمَنْ يطع الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَطَاعَةُ اللَّهِ طَاعَةٌ للرَّسُولِ بِخِلَافِ الْمَشِيئَةِ فَلَيْسَتْ مَشِيئَةُ أَحَدٍ مِنْ الْعِبَادِ مَشِيئَةً لِلَّهِ، وَلَا مَشِيئَةُ اللَّهِ مُسْتَلْزِمَةً لِمَشِيئَةِ الْعِبَادِ بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ وَإِنْ لَمْ يَشَأْ النَّاسُ، وَمَا شَاءَ النَّاسُ لَمْ يَكُنْ إلا أن يَشَاء اللَّهُ» بمعنى أن الله عز وجل له مشيئته الخاصة فليست مشيئة العباد مشيئة للخلق.

يقول المؤلف: «(الْأَصْلُ الثَّانِي) : حَقُّ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَلَيْنَا أَنْ نُؤْمِنَ بِهِ وَنُطِيعَهُ وَنَتَّبِعَهُ وَنَرْضِيَهُ وَنُحِبَّهُ وَنُسَلِّمَ لِحُكْمِهِ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ -هذا من حقوق النبي صلى الله عليه وسلم الطاعة التسليم الإتباع الدليل على ذلك- قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ وقَالَ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ وقَالَ تَعَالَى: ﴿قل إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ وقَالَ تَعَالَى: ﴿لَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ -كل هذه الآيات دليل عل هذه الحقوق التي ذكرها المؤلف رحمه الله - وقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ وَأَمْثَالُ ذَلِكَ»

***

ثم قال المؤلف: «(فَصْلٌ) إِذَا ثَبَتَ هَذَا فَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّهُ يَجِبُ الْإِيمَانُ بِخَلْقِ اللَّهِ وَأَمْرِهِ بِقَضَائِهِ وَشَرْعِهِ - يعني الإيمان بعموم خلق الله عز وجل والإيمان بعموم أمره بمعنى الإيمان بقضائه والإيمان بشرعه - وَأَهْلُ الضَّلَالِ الْخَائِضُونَ فِي الْقَدَرِ انْقَسَمُوا إِلَى ثَلَاثِ فِرَقٍ : مَجُوسِيَّةٍ ومشركيّة وإبليسيّة - أهل الضلال الذين خالفوا أهل السنة في مسألة القضاء والقدر ثلاث فرق مجوسية، إبليسية، ومشركية.

تعريف كل طائفة: -

فَالْمَجُوسِيَّةُ: الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَدَرِ اللهِ وَإِنْ آمَنُوا بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ- كذبوا بعموم القدر لكنهم آمنوا بشرع الله- فَغُلَاتُهُمْ أَنْكَرُوا الْعِلْمَ وَالْكِتَابَ- ومُقْتَصِدتهُمْ أَنْكَرُوا عُمُومَ مَشِيئَتِهِ وَخَلْقِهِ وَقُدْرَتِهِ وَهَؤُلَاءِ هُمْ الْمُعْتَزِلَةُ وَمَنْ وَافَقَهُمْ

الْفِرْقَةُ الثَّانِيَةُ: المشركية الَّذِينَ أَقَرُّوا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَأَنْكَرُوا الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ - فَمَنْ احْتَجَّ عَلَى تَعْطِيلِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ بِالْقَدَرِ فَهُوَ مِنْ هَؤُلَاءِ وَهَذَا قَدْ كَثُرَ فِيمَنْ يَدَّعِي الْحَقِيقَةَ مِنْ .

وَالْفِرْقَةُ الثَّالِثَةُ : الإبليسية وَهُمْ الَّذِينَ أَقَرُّوا الْأَمْرَيْنِ - أقروا بالقضاء والقدر وبالأمر والنهي- لَكِنْ جَعَلُوا هَذَا تَنَاقُضًا - جَعَلُوا هَذَا تَنَاقُضًا مِنْ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- شبههم بإبليس؛ أثبت القضاء والقدر قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هذا تناقض منك يا رب تعالى الله عن ذلك- وَطَعَنُوا فِي حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ كَمَا يُذْكَرُ ذَلِكَ عَنْ إبْلِيسَ مُقَدِّمِهِمْ ؛ كَمَا نَقَلَهُ أَهْلُ الْمَقَالَاتِ وَنُقِلَ عَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَقْصُودُ أَنَّ هَذَا مِمَّا يقوله أَهْلُ الضَّلَالِ»

يقول المؤلف: «وَأَمَّا أَهْلُ الْهُدَى وَالْفَلَاحِ: فَيُؤْمِنُونَ بِهَذَا وَهَذَا- يؤمنون بعموم الشرع ويؤمنون بعموم القضاء والقدر- فَيُؤْمِنُونَ بِأَنَّ اللهَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ وَمَا شَاءَ كَانَ وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَاهُ فِي كتاب مُبِينٍ- أي: يثبتون عموم مشيئة الله وعموم علمه- وَيَتَضَمَّنُ هَذَا الْأَصْلُ مِنْ إثْبَاتِ عِلْمِ اللهِ وَقُدْرَتِهِ وَمَشِيئَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ أَنَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَرَبُّهُ وَمَلِيكُهُ: مَا هُوَ مِنْ أُصُولِ الْإِيمَانِ -إذًا من أصول الإيمان إثبات عموم القضاء والقدر -وَمَعَ هَذَا لَا يُنْكِرُونَ مَا خَلَقَهُ اللهُ مِنْ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَخْلُقُ بِهَا الْمُسَبَّبَاتِ -أي يثبتون أن الله عز وجل خلق الأسباب وخلق مسبباتها- كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ - (فأنزلنا به) الباء هنا سببية (به) أي: أنزلنا بهذه الرياح الماء فأخرجنا به من كل الثمرات - وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ (يهدي به) الباء سببية، يهدي الله عز وجل بسبب هذا القرآن من اتبع رضوانه- وَقَالَ تَعَالَى : ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ -أي بسبب القرآن- فَأَخْبَرَ أَنَّهُ يَفْعَلُ بِالْأَسْبَابِ.

وَمَنْ قَالَ: يَفْعَلُ عِنْدَهَا لَا بِهَا -أن يفعل عند الأسباب وهؤلاء هم منكرة الأسباب - فَقَدْ خَالَفَ مَا جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ وَأَنْكَرَ مَا خَلَقَهُ اللهُ مِنْ الْقُوَى وَالطَّبَائِعِ، وَهُوَ شَبِيهٌ بِإِنْكَارِ مَا خَلَقَهُ اللهُ مِنْ الْقُوَى الَّتِي فِي الْحَيَوَانِ الَّتِي يَفْعَلُ الْحَيَوَانُ بِهَا مِثْلَ قُدْرَةِ الْعَبْدِ -إذًا الطائفة الأولى: أنكرت الأسباب ولهذا قالوا إن الله يفعل عندها؛ ولكن لا يفعل بها - كَمَا أَنَّ مَنْ جَعَلَهَا هِيَ الْمُبْدِعَةَ -جعل الأسباب هي المبدعة ابتداء وهي المنشئة - لِذَلِكَ فَقَدْ أَشْرَكَ بِاللهِ- لأنه أضاف فعله إلى غيره، فيقول الرياح هي التي بنفسها تنشئ السحاب، والرياح هي بنفسها التي تنزل المطر، فهذا جعل لله عز وجل شريك في الفعل- وَذَلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ سَبَبٍ مِنْ الْأَسْبَابِ إلَّا وَهُوَ مُفْتَقِرٌ إلَى سَبَبٍ آخَرَ فِي حُصُولِ مُسَبَّبِهِ وَلَا بُدَّ له مِنْ مَانِعٍ يَمْنَعُ مُقْتَضَاهُ إذَا لَمْ يَدْفَعْهُ اللهُ عَنْهُ فَلَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ وَاحِدٌ يَسْتَقِلُّ بِفِعْلِ شَيْءٍ إلَّا اللهُ - يقول: "أصلاً هذه الأسباب كل سبب مترتب على سبب آخر وليس ثم شيء واحد يفعل استقلالًا إلا الله عز وجل؛ يعني مستغنٍ عن كل شيء، أما الأسباب الأخرى فهي مفتقرة كل سبب إلى سبب آخر- قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أَيْ فَتَعْلَمُونَ أَنَّ خَالِقَ الْأَزْوَاجِ وَاحِدٌ»

يقول المؤلف: «وَلِهَذَا مَنْ قَالَ: إنَّ اللهَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إلَّا وَاحِدٌ - لِأَنَّ الْوَاحِدَ لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إلَّا وَاحِدٌ -وهذا

مذهب الفلاسفة وهو مذهب ضال- كَانَ جَاهِلًا فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْوُجُودِ وَاجِدٌ صَدَرَ عَنْهُ وَحْدَهُ شَيْءٌ- لَا وَاحِدَ وَلَا اثْنَانِ- إِلَّا اللهُ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ فَالنَّارُ الَّتِي جعل اللهُ فِيهَا حَرَارَةً لَا يَحْصُلُ الْإِحْرَاقُ إِلَّا بِهَا وَبِمَحَلٍّ يَقْبَلُ الِاحْتِرَاقَ ؛ فَإِذَا وَقَعَتْ عَلَى السّمندل وَالْيَاقُوتِ وَنَحْوِهِمَا لم تحرقهما -يقول: النار أليس من طبيعتها الإحراق؛ لكن لابد من عدم وجود المانع بمعنى أن تقع على شيء يقبل الاحتراق؛ فلو سلطت النار على الحديد ما احترق، لو سلطت النار على الحجر ما احترق، الشيخ ذكر مثلًا: السمندل والياقوت؛ الياقوت من أشد أنواع الأحجار، والسمندل نوع من الدهن وهو طائر ينطلي بالدهن لا يحترق -وَقَدْ يُطْلَى الْجِسْمُ بِمَا يَمْنَعُ إِحْرَاقَهُ، وَالشَّمْسُ الَّتِي يَكُونُ عَنْهَا الشُّعَاعُ لَا بُدَّ مِنْ جِسْمٍ يَقْبَلُ انْعِكَاسَ الشُّعَاعِ عَلَيْهِ وَإِذَا حَصَلَ حَاجِزٌ مِنْ سَحَابٍ أَوْ سَقْفٍ لَمْ يَحْصُلْ الشُّعَاعُ تَحْتَهُ وَقَدْ بُسِطَ هَذَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ» الشاهد أن السبب لا يمكن أن يحصل به المسبب إلا مع زوال المانع وحصول نفس السبب.

يقول المؤلف: «وَالْمَقْصُودُ هُنَا: أَنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ (الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ) فَإِنَّ الْإِيمَانَ بِالْقَدَرِ مِنْ تَمَامِ التَّوْحِيدِ- الإيمان بالقدر من تمام التوحيد فلا يتم توحيد المرء إلا بأن يؤمن بعموم مشيئة الله وعموم خلقه وعموم علمه وكتابته -كَمَا قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (هُوَ نِظَامُ التَّوْحِيدِ) -أي: القدر- فَمَنْ وَحَّدَ اللهَ وَآمَنَ بِالْقَدَرِ تَمَّ تَوْحِيدُهُ وَمَنْ وَحَّدَ اللهَ وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ نَقَضَ تكذيبه تَوْحِيدَهُ وَلَا بُدَّ مِنْ الْإِيمَانِ بِالشَّرْعِ وَهُوَ الْإِيمَانُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ -كما أنه لابد من الإيمان بالقدر أيضًا لابد من الإيمان بالشرع -كَمَا بَعَثَ اللهُ بِذَلِكَ رُسُلَهُ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ وَالْإِنْسَانُ مُضْطَرٌّ إلَى شَرْعٍ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ حَرَكَةٍ يَجْلِبُ بِهَا مَنْفَعَة، وَحَرَكَةٍ يَدْفَعُ بِهَا مَضَرَّة وَالشَّرْعُ هُوَ الَّذِي يُمَيِّزُ بَيْنَ الْأَفْعَالِ الَّتِي تَنْفَعُهُ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي تَضُرُّهُ -الإنسان بطبعه مضطر إلى فعل شيء وترك شيء ؛ فلابد له من شرع يميز له بين الأفعال النافعة والأفعال الضارة - وَهُوَ عَدْلُ اللهِ فِي خَلْقِهِ، وَنُورُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ- أي شرعه سبحانه - هُوَ عَدْلُ اللهِ فِي خَلْقِهِ، وَنُورُهُ بَيْنَ عِبَادِهِ؛ فَلَا يُمْكِنُ لِلْآدَمِيِّينَ أَنْ يَعِيشُوا بِلَا شَرْعٍ يُمَيِّزُونَ بِهِ بَيْنَ مَا يَفْعَلُونَهُ وَيَتْرُكُونَهُ -إذًا الناس مضطرون إلى وجود الشرع كاضطرارهم إلى الماء بل أشد اضطرارًا إلى الهواء- وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالشَّرْعِ مُجَرَّدَ الْعَدْلِ بَيْنَ النَّاسِ فِي مُعَامَلَاتِهِمْ بَلْ الْإِنْسَانُ الْمُنْفَرِدُ لَا بُدَّ لَهُ مَنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ هَمَّامٌ وحَارِثٌ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أَصْدَقُ الْأَسْمَاءِ حَارِثٌ وَهَمَّامٌ) وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ: (مُتَحَرِّكٌ بِالْإِرَادَة) فَإِذَا كَانَ لَهُ إرَادَةٌ فَهُوَ مُتَحَرِّكٌ بِهَا فَلَا بُدَّ أَنْ يَعْرِفَ مَا يُرِيدُهُ هَلْ هُوَ نَافِعٌ لَهُ أَوْ ضَارٌّ؟ وَهَلْ يُصْلِحُهُ أَوْ يُفْسِدُهُ؟ وَهَذَا قَدْ يَعْرِفُ بَعْضَهُ النَّاسُ بِفِطْرَتِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ انْتِفَاعَهُمْ بِالْأَكْلِ وَالشُّرْبِ وَكَمَا يَعْرِفُونَ مَا يَعْرِفُونَ مِنْ الْعُلُومِ الضَّرُورِيَّةِ بِفِطْرَتِهِمْ وَبَعْضُهُ يَعْرِفُونَهُ بِالِاسْتِدْلَالِ الَّذِي يَهْتَدُونَ بِهِ بِعُقُولِهِمْ وَبَعْضُهُ لَا يَعْرِفُونَهُ إِلَّا بِتَعْرِيفِ الرُّسُلِ وَبَيَانِهِمْ وَهِدَايَتِهِمْ لَهُمْ» إذًا ما ينفع الناس وما يضرهم بعضه يمكن أن يدركه الإنسان بفطرته كحاجته إلى الأكل والشرب، وبعضه قد يدركه الإنسان بعقله يميز بين الأمور، وهناك أشياء لا يمكن أن يعرف ضررها ونفعها إلا بالشرع بالرسل.

قال المؤلف: «وَفِي هَذَا الْمَقَامِ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْأَفْعَالِ، هَلْ يُعْرَفُ حُسْنُهَا وَقُبْحُهَا بِالْعَقْلِ أَمْ لَيْسَ لَهَا حَسَنٌ وقبحٌ يُعْرَفُ بِالْعَقْلِ؟ كَمَا قَدْ بُسِطَ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ وَبَيَّنَّا مَا وَقَعَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مِنْ الِاشْتِبَاهِ. فَإِنَّهُمْ اتَّفَقُوا عَلَى أَنَّ كَوْنَ الْفِعْلِ يُلَائِمُ الْفَاعِلَ أَوْ يُنَافِرُهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ -كون هذا الشيء يلائمني أو لا يلائمني هذا يعلم بالعقل- وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الْفِعْلُ سَبَبًا لِمَا يُحِبُّهُ الْفَاعِلُ وَيَلْتَذُّ بِهِ وَسَبَبًا لِمَا يُبْغِضُهُ وَيُؤْذِيه وَهَذَا الْقَدْرُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ تَارَةً وَبِالشَّرْعِ أُخْرَى وَبِهِمَا جَمِيعًا أُخْرَى؛ لَكِنَّ مَعْرِفَةَ ذَلِكَ عَلَى وَجْهِ التَّفْصِيلِ وَمَعْرِفَةَ الْغَايَةِ الَّتِي

تَكُونُ عَاقِبَةُ الْأَفْعَالِ: مِنْ السَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ لَا تُعْلم إِلَّا بِالشَّرْعِ- يعني عاقبة هذه الأفعال وآثارها في الآخرة وآثارها في الدنيا التي لا يمكن للعقل أن يدركها هذا لا يعلم إلا بالشرع، إذًا حسن الأفعال وقبحها يمكن أن يدرك شيء منه بالعقل؛ لكن تفاصيل هذه الأمور وعواقب هذه الأمور لا يمكن أن تدرك إلا بالشرع - فَمَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفَاصِيلِ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَمَرَتْ بِهِ مِنْ تَفَاصِيلِ الشَّرَائِعِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ كَمَا أَنَّ مَا أَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنْ تَفْصِيلِ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ لَا يَعْلَمُهُ النَّاسُ بِعُقُولِهِمْ وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَعْلَمُونَ بِعُقُولِهِمْ جُمَلَ ذَلِكَ -يعني الناس قد يثبتون أو يعرفون بعقولهم أن هناك يوم آخر يجازى فيه الناس؛ لكن تفاصيل هذا اليوم الآخر لا يمكن إلا بالشرع أيضا ما يجب لله عز وجل من أسماء وصفات قد يدركه الإنسان على وجه الإجمال هذا بعقله؛ لكن تفاصيل هذه الأمور لا يمكن أن يدركه إلا بالشرع- وَهَذَا التَّفْصِيلُ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الْإِيمَانُ وَجَاءَ بِهِ الْكِتَابُ هُوَ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي الله عز وجل وصف القرآن بأنه نور وأنه روح، والروح الذي تتوقف الحياة الحقيقية عليه، والنور الذي تتوقف الهداية عليه، إذًا وصفه الله بأنه نور وروح بمعنى أن الحياة الحقيقية والهداية الحقيقية متوقفة على هذا الشرع الذي هو القرآن- وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ -هذه الآية دليل على أن الهداية متوقفة على ورود الشرع- وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ -إنما أنذركم بهذا الشرع، إذًا الشرع لابد منه ولا يكفي تحسين العقل وتقبيحه كما زعم المعتزلة وممن حذا حذوهم -وَلَكِنْ تَوَهَّمَتْ طَائِفَةٌ أَنَّ لِلْحُسْنِ وَالْقُبْحِ مَعْنًى غَيْرَ هَذَا وَأَنَّهُ يُعْلَمُ بِالْعَقْلِ- وهذا المعتزلة - وَقَابَلَهُمْ طَائِفَةٌ أُخْرَى ظَنَّتْ أَنَّ مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ مِنْ الْحُسْنِ وَالْقُبْحِ : يَخْرُجُ عَنْ هَذَا -أي: عن تحسين العقل وتقبيحه يعني كون هذا الشرع نهى عنه فهو قبيح لنهي الشرع وليس لتقبيح العقل، لا، فيقال: الشرع نهى عن هذا؛ لأنه قبيح وزاده الشرع قبحًا - فَكِلَتَا الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَثْبَتَا الْحُسْنَ وَالْقُبْحَ الْعَقْلِيَّيْنِ أَوْ الشَّرْعِيَّيْنِ وَأَخْرَجَتَاهُ عَنْ هَذَا الْقِسْمِ غَلِطَتْ» الطائفة الأولى: المعتزلة، والطائفة الثانية: الأشاعرة.

قال المؤلف: «ثُمَّ إنَّ كِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ لَمَّا كَانَتَا تُنْكِرُ أَنْ يُوصَفَ اللَّهُ بِالْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا وَالسُّخْطِ وَالْفَرَحِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ الْإِلَهِيَّةُ وَدَلَّتْ عَلَيْهِ الشَّوَاهِدُ الْعَقْلِيَّةُ: تَنَازَعُوا بَعْدَ اتِّفَاقِهِمْ عَلَى أَنَّ اللَّهَ لَا يَفْعَلُ مَا هُوَ مِنْهُ قَبِيحٌ هَلْ ذَلِكَ مُمْتَنِعٌ لِذَاتِهِ وَأَنَّهُ لَا تُتَصَوَّرُ قُدْرَتُهُ عَلَى مَا هُوَ قَبِيحٌ أو أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وتعالى مُنَزَّهٌ عَنْ ذَلِكَ لَا يَفْعَلُهُ لِمُجَرَّدِ الْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ الَّذِي أَثْبَتُوهُ؟ عَلَى قَوْلَيْنِ: - بمعنى أن منهم من قال هذا ومنهم من قال هذا يعني هل هو ممتنع على الله عز وجل أم أنه لا يفعله لأنه قبيح؟ - وَالْقَوْلَانِ فِي الِانْحِرَافِ مِنْ جِنْسِ الْقَوْلَيْنِ الْمُتَقَدِّمَيْنِ - الذين أثبتوا التحسين والتقبيح العقلي والذين نفوا التحسين والتقبيح العقلي- أُولَئِكَ لَمْ يُفَرِّقُوا -هؤلاء الجبرية- فِي خَلْقِهِ وَأَمْرِهِ بَيْنَ الْهُدَى وَالضَّلَالِ وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ وَالْأَبْرَارِ وَالْفُجَّارِ وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ وَالرَّحْمَةِ وَالْعَذَابِ؛ فَلَا جَعَلُوهُ مَحْمُودًا عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنْ الْعَدْلِ أَوْ تَرَكَهُ مِنْ الظُّلْمِ وَلَا مَا فَعَلَهُ مِنْ الْإِحْسَانِ وَالنِّعْمَةِ أو تَرَكَهُ مِنْ العذابِ وَالنِّقْمَةِ- لأنهم قالوا: فعلوا هذا لمجرد المشيئة -وَالْآخَرُونَ نَزَّهُوهُ بِنَاءً عَلَى الْقُبْحِ الْعَقْلِيِّ- نزهوه عن أن يخلق الكفر ويعاقب عليه، بناء على القبح العقلي- الَّذِي أَثْبَتُوهُ وَلَا حَقِيقَةَ لَهُ وَسَوَّوْهُ بِخَلْقِهِ فِيمَا يَحْسُنُ وَيَقْبُحُ، وَشَبَّهُوهُ بِعِبَادِهِ فِيمَا يَؤمر بِهِ وَيُنْهَى عَنْهُ» أي شبهوا الله عز وجل بالخلق ولهذا قاسوا الظلم الحاصل من الخلق على الظلم المنزه الله عز وجل عنه.

المحاضرة الأربعون

يقول المؤلف: «فَمَنْ نَظَرَ إِلَى الْقَدَرِ فَقَطْ وَعَظَّمَ الْفَنَاءَ فِي تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ- وهذا حال الصوفية- وَوَقَفَ عِنْدَ الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ -بمعنى أن كل ما في الكون هو بتقدير الله وبخلقه وبمشيئته- لَمْ يُمَيِّزْ بَيْنَ الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ، وَالصِّدْقِ وَالْكَذِبِ، وَالْبِرِّ وَالْفُجُورِ، وَالْعَدْلِ وَالظُّلْمِ، وَالطَّاعَةِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَالرُّشدِ وَالْغَيِّ، وَأَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَعْدَائِهِ، وَأَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، -لم يفرقوا لأنهم يقولون: كل هذا بخلق الله وبقضائه وقدره - وَهَؤُلَاءِ مَعَ أَنَّهُمْ مُخَالِفُونَ بِالضَّرُورَةِ لِكُتُبِ اللهِ وَدِينِهِ وَشَرَائِعِهِ فَهُمْ مُخَالِفُونَ أَيْضًا لِضَرُورَةِ الْحِسِّ- يعني الكتب المنزلة فرقت بين الهدى والضلال، والخير والشر، والكفر والإيمان؛ وهؤلاء يسوون بينهم، يقول: مع أنهم مخالفون لما جاءت به الرسل، أيضًا مخالفون لضرورة الحس والذوق وضرورة العقل والقياس؛ لأن ضرورة العقل والقياس والذوق تفرق بين هذا وهذا، تفرق بين النافع والضار وبين الهدى والضلال وبين الغي والرشد - فَإِنَّ أَحَدَهُمْ لَا بُدَّ أَنْ يَلْتَذَّ بِشَيْءٍ وَيَتَأَلَّمَ بِشَيْءٍ فَمن يُمَيِّزَ بَيْنَ مَا يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَمَا لَا يَأْكُلُ وَلَا يَشْرَبُ وَبَيْنَ مَا يُؤْذِيه مِنْ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ -يعني الإنسان بطبعه يميز بين هذا يؤذيه وهذا لا يؤذيه، يميز بين الحر والبرد وبين هذا المشروب وهذا المأكول -وَمَا لَيْسَ كَذَلِكَ وَهَذَا التَّمْيِيزُ بَيْنَ مَا يَنْفَعُهُ وَيَضُرُّهُ هُوَ الْحَقِيقَةُ الشَّرْعِيَّةُ الدِّينِيَّةُ -إذا كنت تميز بهذا أيضًا هناك تمييز بين الهدى والضلال والكفر والإيمان، يقول: فهذه هي الحقيقة الشرعية الدينية- وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ الْبَشَرَ يَنْتَهِي إلَى حَدٍّ يَسْتَوِي عِنْدَهُ الْأَمْرَانِ دَائِمًا فَقَدْ افْتَرَى وَخَالَفَ ضَرُورَةَ الْحِسِّ- وهذا مذهب الصوفية أنهم يزعمون أن الإنسان يصل إلى درجة تتساوى عنده الأمور؛ لأنه لا ينظر إلا إلى الحقيقة الكونية؛ أن الكون كله بقضائه وقدره- وَخَالَفَ ضَرُورَةَ الْحِسِّ؛ وَلَكِنْ قَدْ يَعْرِضُ لِلْإِنْسَانِ بَعْضَ الْأَوْقَاتِ عَارِضٌ كَالسُّكْرِ وَالْإِغْمَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يَشْغَلُه عَنْ الْإِحْسَاسِ بِبَعْضِ الْأُمُورِ فَإِمَّا أَنْ يَسْقُطَ إحْسَاسُهُ بِالْكُلِّيَّةِ مَعَ وُجُودِ الْحَيَاةِ فِيهِ فَهَذَا مُمْتَنِعٌ، فَإِنَّ النَّائِمَ- يقول الإنسان قد يعرض له عارض يسقط معه نوع من الإحساس؛ لكن إسقاط الإحساس بالكلية هذا مستحيل، أكثر الناس سقوط للإحساس النائم ومع ذلك قد يحس ببعض الأشياء -لَمْ يَسقط إحْسَاسَ نَفْسِهِ بَلْ يَرَى فِي مَنَامِهِ مَا يَسُرُّهُ تَارَةً، وَمَا يَسُوؤُهُ أُخْرَى، فَالْأَحْوَالُ الَّتِي يُعَبَّرُ عَنْهَا بِالِاصْطِلَامِ وَالْفَنَاءِ وَالسُّكْرِ- وهذه من مصطلحات الصوفية: الاصطلام والفناء والسكر هو نوع من الغياب غياب الشعور -وَنَحْوِ ذَلِكَ إنَّمَا تَتَضَمَّنُ عَدَمَ الْإِحْسَاسِ بِبَعْضِ الْأَشْيَاءِ دُونَ بَعْضٍ فَهِيَ مَعَ نَقْصِ صَاحِبِهَا - لِضَعْفِ تَمْيِيزِهِ - لَا تَنْتَهِي إلَى حَدٍّ يَسْقُطُ بِهِ التَّمْيِيزُ مُطْلَقًا -يقول: لا يمكن للإنسان أن يصل إلى درجة لا يمكن أن يميز بين الأشياء؛ حتى المجنون الذي فقد عقله يمكن أن يميز بين بعض الأشياء ولهذا إذا وضعته على النار ابتعد عنها -وَمَنْ نَفَى التَّمْيِيزَ فِي هَذَا الْمَقَامِ مُطْلَقًا -يعني أن الإنسان يصل إلى درجة لا يمكن أن يميز بين الأشياء -وَعَظَّمَ هَذَا الْمَقَامَ فَقَدْ غَلِطَ فِي الْحَقِيقَةِ الْكَوْنِيَّةِ وَالدِّينِيَّةِ قَدْرًا وَشَرْعًا، غَلِطَ فِي خَلْقِ اللهِ وَفِي أَمْرِهِ حَيْثُ ظَنَّ وُجُودَ هَذَا؛ وهذا لَا وُجُودَ لَهُ -غلط في كون أن هذا موجود وهذا يستحيل أن يكون موجود، أما الغلط الشرعي- وَحَيْثُ ظَنَّ أَنَّهُ مَمْدُوحٌ -كون أن الإنسان يصل إلى درجة لا يستطيع أن يميز بين الأشياء أن هذا فيه مدح وثناء ودرجة عالية فهذا غلط في الحقيقة الشرعية -فِي عَدَمِ التَّمْيِيزِ وَالْعَقْلُ وَالْمَعْرِفَةُ»

قال المؤلف: «وَإِذَا سَمِعْت بَعْضَ الشُّيُوخِ يَقُولُ: أُرِيدُ أَنْ لَا أُرِيدَ- بعض شيوخ الصوفية- أَوْ أَنَّ الْعَارِفَ لَا حَظَّ لَهُ، أو أَنَّهُ يَصِيرُ كَالْمَيِّتِ بَيْنَ يَدَيْ الْغَاسِلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ- يعني يسعى أن يتمدح بإسقاط الإرادة بحيث أن الإنسان لا يصير له أي إرادة- فَهَذَا إنَّمَا يُمْدَحُ مِنْهُ سُقُوطُ إرَادَتِهِ الَّتِي لم يُؤْمَرْ بِهَا – يقول: هذا نثني عليه أنه يسقط

إرادته الشيء الذي ما أراد الله عز وجل منه أن يفعله- وَعَدَمُ حَظِّهِ الَّذِي لَم يُؤْمَرْ بِطَلَبِهِ- إذا كان الله عز وجل نهاك مثلًا: عن أكل الحرام فعدم إرادتك الحرام وعدم طلب الحرام هذا تمدح عليه -وَأَنَّهُ كَالْمَيِّتِ فِي طَلَبِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِطَلَبِهِ، وَتَرْكِ دَفْعِ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِدَفْعِهِ- هذا أمر محمود عليه -وَمَنْ أَرَادَ بِذَلِكَ -يعني إذا قال أريد ألا أريد أو أن أكون كالميت بين يدي المغسل -مَنْ أَرَادَ بِذَلِكَ أَنَّهُ تَبْطُلُ إِرَادَتُهُ بِالْكُلِّيَّةِ وَأَنَّهُ لَا يُحِسُّ بِاللَّذَّةِ وَالْأَلَمِ؛ وَالنَّافِعِ وَالضَّارِّ، فَهَذَا مكابرٌ، مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الْحِسِّ وَالْعَقْلِ، وَمَنْ مَدَحَ هَذَا فَهُوَ مُخَالِفٌ لِضَرُورَةِ الدِّينِ وَالْعَقْلِ»

قال المؤلف: «وَالْفَنَاءُ يُرَادُ بِهِ ثَلَاثَةُ أُمُورٍ:- **الفناء من المصطلحات الصوفية يراد به ثلاثة أمور:-**

أَحَدُهَا: هُوَ الْفَنَاءُ الدِّينِيُّ الشَّرْعِيُّ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ وَنزلَتْ بِهِ الْكُتُبُ وَهُوَ أَنْ يَفْنَى عَمَّا لَمْ يَأْمُرْ اللهِ بِهِ بِفِعْلِ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَيَفْنَى عَنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ بِعِبَادَتِهِ، وَعَنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ بِطَاعَتِهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ، وَعَنْ التَّوَكُّلِ عَلَى غَيْرِهِ بِالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَعَنْ مَحَبَّةِ مَا سِوَاهُ بِمَحَبَّتِهِ وَمَحَبَّةِ رَسُولِهِ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ - الشاهد: أن هذا هو الفناء الشرعي، أن يفنى عن الشيء الذي لم يأمر الله به بفعل أمره سبحانه وتعالى بطاعته عن طاعة غيره، وبمحبته عن محبة غيره.-

وَأَمَّا الْفَنَاءُ الثَّانِي: وَهُوَ الَّذِي يَذْكُرُهُ بَعْضُ المتصوفة وَهُوَ أَنْ يَفْنَى عَنْ شُهُودِ مَا سِوَى اللهِ تَعَالَى فَيَفْنَى بِمَعْبُودِهِ عَنْ عِبَادَتِهِ - يعني يفنى بمشاهدة الأشياء فيصبح لا يشاهد إلا الله عز وجل -وَبِمَذْكُورِهِ عَنْ ذِكْرِهِ - مذكوره ومشهوده هو الله عز وجل- بِحَيْثُ قَدْ يَغِيبُ عَنْ شُعوره بنَفْسِهِ وبِمَا سِوَى اللهِ تَعَالَى فَهَذَا حَالٌ نَاقِصٌ قَدْ يَعْرِضُ لِبَعْضِ السَّالِكِينَ وَلَيْسَ هُوَ مِنْ لَوَازِمَ طَرِيقِ اللهِ -يعني هذه حالة ناقصة ليست حال كمال وليست من لوازم طاعة الله عز وجل- وَلِهَذَا لَمْ يعرض مِثْلُ هَذَا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِلسَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ-يعني هذه الدرجة من الفناء لم تحصل للنبي صلى الله عليه وسلم ولا للسابقين الأولين، فهذا يدل على أنها علامة نقص - وَمَنْ جَعَلَ هَذَا نِهَايَةَ السَّالِكِينَ فَهُوَ ضَالٌّ ضَلَالًا مُبِينًا وَكَذَلِكَ مَنْ جَعَلَهُ مِنْ لَوَازِمِ طَرِيقِ اللهِ فَهُوَ مُخْطِئٌ بَلْ هُوَ مِنْ عَوَارِضِ طَرِيقِ اللهِ الَّتِي تَعْرِضُ لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ وليْسَ هُوَ مِنْ اللَّوَازِمِ الَّتِي تَحْصُلُ لِكُلِّ سَالِكٍ.

وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَهُوَ الْفَنَاءُ عَنْ وُجُودِ السِّوى -عن وجود ما سوى الله، بمعنى يغيب بعقله ويفنى عن هذه الموجودات كلها ولا يشاهد إلا وجود الله؛ ولهذا إذا شاهد هذه الموجودات يعتقد أنها هي الله -بِحَيْثُ يَرَى أَنَّ وُجُودَ الْمَخْلُوقِ هُوَ عَيْنُ وُجُودِ الْخَالِقِ وَأَنَّ الْوُجُودَ وَاحِدٌ بِالْعَيْنِ فَهذا قَوْلُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ وَالِاتِّحَادِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ أَضَلِّ الْعِبَادِ» وهذا سبق الكلام عليهم الذين يقولون: أن الله حالّ في كل شيء، متحد في كل شيء، والذي يقول: الله هو هذا الشيء وهذا الشيء وهذا الشيء.

يقول المؤلف: «وَأَمَّا مُخَالَفَتُهُمْ لِضَرُورَةِ الْعَقْلِ وَالْقِيَاسِ فَإِنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَؤُلَاءِ لَا يُمْكِنُهُ أَنْ يَطْرُدَ قَوْلَهُ، فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ مُشَاهِدًا لِلْقَدَرِ مِنْ غَيْرِ تَمْيِيزٍ بَيْنَ الْمَأْمُورِ وَالْمَحْظُورِ، فَعُومِلَ بِمُوجِبِ ذَلِكَ مِثْلَ أَنْ يُضْرَبَ وَيُجَاعَ حَتَّى يُبْتَلَى بِعَظِيمِ الْأَوْصَابِ وَالْأَوْجَاعِ، فَإِنْ لَامَ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ بِهِ وَعَابَهُ، فَقَدْ نَقَضَ قَوْلُهُ وَخَرَجَ عَنْ أَصْلِ مَذْهَبِهِ - إذا كنت تؤمن أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وأن كل شيء مخلوق لله عز وجل وأن الأشياء سواء، إذًا لا تُنكر على من ضربك لا تُنكر على من اعتدى عليك لأنه بقضاء الله وقدره؛ ولهذا الشيخ قال: أنهم لا يستطيعون أن يطردوا هذا المذهب مع أنفسهم - فَخَلْقُ اللهِ وَقَدَرُهُ وَمَشِيئَتُهُ مُتَنَاوَلٌ لَك وَلَهُ، وَهُوَ يَعُمُّكُمَا فَإِنْ كَانَ الْقَدَرُ حُجَّةً لَك فَهُوَ حُجَّةٌ لِهَذَا، وَإِلَّا فَلَيْسَ بِحُجَّةِ لَا لَك وَلَا

لَهُ، فَقَدْ تَبَيَّنَ بِضَرُورَةِ الْعَقْلِ فَسَادُ قَوْلِ مَنْ يَنْظُرُ إِلَى الْقَدَرِ وَيَعْرِضُ عَنْ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ» أن النظر إلى القدر والإعراض عن الأمر والنهي هذا مخالف للعقل ولا يمكن أن يقبله العقل، لو كان يقبله العقل لقبلت ممن اعتدى عليك، قوله هذا بقضاء الله وقدره، لماذا لا تقبل منه ؟!

يقول المؤلف: «وَالْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَفْعَلَ الْمَأْمُورَ وَيَتْرُكَ الْمَحْظُورَ وَيَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ وَقَالَ تعالى فِي قِصَّةِ يُوسُفَ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فَالتَّقْوَى فِعْلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرْكُ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ؛ وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ فَأَمَرَهُ مَعَ الِاسْتِغْفَارِ بِالصَّبْرِ؛ فَإِنَّ الْعِبَادَ لَا بُدَّ لَهُمْ مِنْ الِاسْتِغْفَارِ أَوَّلَهُمْ وَآخِرَهُمْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إلَى رَبِّكُمْ فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً) وَقَالَ: (إنَّهُ ليغان عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ) وَكَانَ يَقُولُ: (اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطَئِي وَعَمْدِي وَهَزْلِي وَجِدِّي وَكُلَّ ذَلِكَ عِنْدِي؛ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْت وَمَا أَخَّرْت وَمَا أَسْرَرْت وَمَا أَعْلَنْت وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخِّرُ لا إله إلا أنت) وَقَدْ ذَكَرَ عَنْ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ أَنَّهُ اسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَتَابَ إلَيْهِ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ وتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ؛ وَعَنْ إبْلِيسَ أَبِي الْجِنِّ أَنَّهُ أَصَرَّ مُتَعَلِّقًا بِالْقَدَرِ فَلَعَنَهُ وَأَقْصَاهُ فَمَنْ أَذْنَبَ فتاب وَنَدِمَ فَقَدْ أَشْبَهَ أَبَاهُ وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ وقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ - الشاهد: أن الإنسان مأمور بفعل الأمر وبترك المنهي عنه والصبر على القدر والاستغفار- وَلِهَذَا قَرَنَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ التَّوْحِيدِ وَالِاسْتِغْفَارِ فِي غَيْرِ آيَةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ -هذه أدلة على أن الله قرن بين التوحيد والاستغفار- وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ وَقَالَ تَعَالَى: ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ ، ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ ، ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ وَغَيْرُهُ: (يَقُولُ الشَّيْطَانُ أَهْلَكْت النَّاسَ بِالذُّنُوبِ وَأَهْلَكُونِي بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَالِاسْتِغْفَارِ؛ فَلَمَّا رَأَيْت ذَلِكَ بَثَثْت فِيهِمْ الْأَهْوَاءَ فَهُمْ يُذْنِبُونَ وَلَا يَتُوبُونَ لِأَنَّهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) وَقَدْ ذَكَرَ سُبْحَانَهُ عَنْ ذِي النُّونِ أَنَّهُ ﴿نَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ قَالَ تَعَالَى : ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إلَّا فَرَّجَ اللَّهُ بها كَرْبَهُ)»

قال المؤلف: «وَجِمَاعُ ذَلِكَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ فِي (الْأَمْرِ) مِنْ أَصْلَيْنِ وَلَا بُدَّ لَهُ فِي الْقَدَرِ مِنْ (أَصْلَيْنِ)

فَفِي (الْأَمْرِ) عَلَيْهِ الِاجْتِهَادُ فِي الِامْتِثَالِ عِلْمًا وَعَمَلًا فَلَا يَزَالُ يَجْتَهِدُ فِي الْعِلْمِ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَالْعَمَلِ بِذَلِكَ، ثُمَّ عَلَيْهِ يَسْتَغْفِرَ وَيَتُوبَ مِنْ تَفْرِيطِهِ فِي الْمَأْمُورِ وَتَعَدِّيهِ لِلْحُدُودِ- لا بد له في (الأمر) من أصلين فعل ما أمر به والاستغفار- وَلِهَذَا كَانَ مِنْ الْمَشْرُوعِ أَنْ تُخْتَمَ جَمِيعُ الْأَعْمَالِ بِالِاسْتِغْفَارِ فَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذَا انْصَرَفَ مِنْ صَلَاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلَاثًا وقَالَ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ فَقَامُوا اللَّيْلَ ثم خَتَمُوا بِالِاسْتِغْفَارِ، وَآخِرُ سُورَةٍ نَزَلَتْ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ وَفِي الحديث الصَّحِيحِ أَنَّهُ كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ

وَسُجُودِهِ: (سُبْحَانَك اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِك اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ) -الشاهد: أنه يجمع بين الفعل والاستغفار-

وَأَمَّا فِي (الْقَدَرِ) فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاَللَّهِ فِي فِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ وَيَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَيَدْعُوَهُ؛ وَيَرْغَبَ إلَيْهِ وَيَسْتَعِيذَ بِهِ فَيَكُونَ مُفْتَقِرًا إلَيْهِ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الشَّرِّ وَعَلَيْهِ أَنْ يَصْبِرَ عَلَى الْمَقْدُورِ وَيَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ؛ وَإِذَا آذَاهُ النَّاسُ عَلِمَ أَنَّ ذَلِكَ مُقَدَّرٌ عَلَيْهِ -

إذن في القدر لا بد له أيضا من أصلين:

الأصل الأول: الاستعانة بالله عز وجل، والتوكل عليه، والدعوة إليه، والرغبة إليه، والاستعاذة به، والافتقار إلى الله عز وجل في فعل كل ما أُمر به وترك كل ما نهي عنه.

الأصل الثاني: الصبر على القدر وعلى فعل المأمور وعلى ترك المنهي وعلى ما تأتي به المقادير وعلى أذية الناس.-

وَمِنْ هَذَا الْبَابِ -أي من باب الاستعانة والصبر والاستغفار والفعل- احْتِجَاجُ آدَمَ وَمُوسَى لَمَّا قَالَ: يَا آدَمَ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَك اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيك مِنْ رُوحِهِ، وَأَسْجَدَ لَك مَلَائِكَتَهُ؛ لِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمَ: أَنْتَ مُوسَى الَّذِي اصْطَفَاك اللَّهُ بِكَلَامِهِ، فَبِكَمْ وَجَدْتَ مَكْتُوبًا عَلَيَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ أُخْلَقَ: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ قَالَ: بِكَذَا وَكَذَا سنة، قال: فَحَجَّ آدَمَ مُوسَى، وَذَلِكَ أَنَّ مُوسَى لَمْ يَكُنْ عَتَبُهُ لِآدَمَ لِأَجْلِ الذَّنْبِ -يعني موسى لم يكن يلوم أباه آدم لأجل الذنب؛ لأنه أعلم من أن يلوم أباه على ذنب قد تاب منه- فَإِنَّ آدَمَ قَدْ كَانَ تَابَ مِنْهُ وَالتَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ؛ وَلَكِنْ لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ مِنْ ذَلِكَ- موسى يلوم آدم على المصيبة التي حصلت بسبب الذنب وهو الخروج من الجنة - وَهُمْ مَأْمُورُونَ أَنْ يَنْظُرُوا إلَى الْقَدَرِ فِي الْمَصَائِبِ وَأَنْ يَسْتَغْفِرُوا مِنْ المعائب كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ فَمَنْ رَاعَى الْأَمْرَ وَالْقَدَرَ -أي لاحظ الأمر والقدر- كَمَا ذَكَرَ : كَانَ عَابِدًا لِلَّهِ مُطِيعًا لَهُ مُسْتَعِينًا بِهِ مُتَوَكِّلًا عَلَيْهِ مِنْ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ»

يقول المؤلف: «وَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بَيْنَ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ -الأمر والقدر- فِي غير مَوضِعَ كَقَوْلِهِ تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ -هذا الأمر- وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ -هذا هو القدر -وَقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ -هذا الأمر- وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾-هو القدر- وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ -هذا القدر- وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ -هذا الأمر- وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ -هذا هو الأمر- يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ -هذا القدر- إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ فَالْعِبَادَةُ له وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ عِنْدَ الْأُضْحِيَّةِ: (اللَّهُمَّ مِنْك وَلَك) فَمَا لَمْ يَكُنْ بِاَللَّهِ لَا يَكُونُ؛ فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إلَّا بِاَللَّهِ وَمَا لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ لَا يَنْفَعُ وَلَا يَدُومُ» الشيء الذي لا يكون بالله لا يمكن أن يكون والشيء الذي لا يكون لله لا ينفع صاحبه ولا يدوم نفعه في الآخرة.

يقول المؤلف: «وَلَا بُدَّ فِي (عِبَادَتِهِ) مِنْ أَصْلَيْنِ -إذًا في الأمر والشرع كل واحد منه لابد فيه من أصلين، أيضًا العبادة لا بد فيها من أصلين- أَحَدُهُمَا إخْلَاصُ الدِّينِ لِلَّهِ، وَالثَّانِي مُوَافَقَةُ أَمْرِهِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ- إذًا الإخلاص و المتابعة -وَلِهَذَا كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا- هذه الموافقة- وَاجْعَلْهُ لِوَجْهِك خَالِصًا- هذا هو الإخلاص- وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا؛ وَقَالَ الفضيل بْنُ عِيَاضٍ فِي قَوْله تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قَالَ: أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ، قيل يَا أَبَا عَلِيٍّ: مَا أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ قَالَ: إن الْعَمَلُ إذَا كَانَ خَالِصًا... إلى آخر ما ذكر، وَلِهَذَا ذَمَّ اللَّهُ الْمُشْرِكِينَ فِي الْقُرْآنِ عَلَى إتباع مَا شَرَعَ لَهُمْ شُرَكَاؤُهُمْ مِنْ الدِّينِ الذي لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ مِنْ عِبَادَةِ غَيْرِهِ وَفِعْلِ مَا لَمْ يَشْرَعْهُ مِنْ الدِّينِ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَمْ

لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ﴾ كَمَا ذَمَّهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ حَرَّمُوا مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللهُ. وَالدِّينُ الْحَقُّ: أَنَّهُ لَا حَرَامَ إِلَّا مَا حَرَّمَهُ اللهُ وَلَا دِينَ إِلَّا مَا شَرَعَهُ اللهُ»

هذا هو الدين الحق.

يقول المؤلف: «ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ فِي عِبَادَتِهِ وَاسْتِعَانَتِهِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:-

أقسام الناس في عبادة الله عز وجل واستعانته:-

الْمُؤْمِنُونَ الْمُتَّقُونَ هُمْ لَهُ وَبِهِ يَعْبُدُونَهُ وَيَسْتَعِينُونَهُ- يجمعون بين العبادة والاستعانة- وَطَائِفَةٌ تَعْبُدُهُ مِنْ غَيْرِ اسْتِعَانَةٍ وَلَا صَبْرٍ فَتَجِدُ عِنْدَ أَحَدِهِمْ تَحَرِّيًا لِلطَّاعَةِ وَالْوَرَعِ وَلُزُومِ السُّنَّةِ؛ لَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ تَوَكُّلٌ وَاسْتِعَانَةٌ وَصَبْرٌ؛ بَلْ فِيهِمْ عَجْزٌ وَجَزَعٌ. وَطَائِفَةٌ: فِيهِمْ اسْتِعَانَةٌ وَتَوَكُّلٌ وَصَبْرٌ مِنْ غَيْرِ اسْتِقَامَةٍ -يعني الطاعة عندهم ضعيفة -عَلَى الْأَمْرِ وَلَا مُتَابَعَةٍ لِلسُّنَّةِ فَقَدْ يُمَكَّنُ أَحَدُهُمْ وَيَكُونُ لَهُ نَوْعٌ مِنَ الْحَالِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا وَيُعْطَى مِنَ الْمُكَاشَفَاتِ وَالتَّأْثِيرَاتِ مَا لَمْ يُعْطَهُ الصِّنْفُ الْأَوَّلُ وَلَكِنْ لَا عَاقِبَةَ لَهُ - يعني كثرة الاستعانة منه والصبر قد يعطى شيء من المكاشفات، لكن ليس هو أفضل من القسم الأول - فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمُتَّقِينَ وَالْعَاقِبَةُ لِلمتقين؛ فَالْأَوَّلُونَ لَهُمْ دِينٌ ضَعِيفٌ وَلَكِنَّهُ مُسْتَمِرٌّ بَاقٍ؛ وإِنْ لَمْ يُفْسِدْهُ صَاحِبُهُ بِالْجَزَعِ -الطائفة التي قبل هذا - وَالْعَجْزِ؛ وَهَؤُلَاءِ لِأَحَدِهِمْ حَالٌ وَقُوَّةٌ، وَلَكِنْ لَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا مَا وَافَقَ فِيهِ الْأَمْرَ وَاتَّبَعَ فِيهِ السُّنَّةَ وَشَرُّ الْأَقْسَامِ - القسم الرابع- مَنْ لَا يَعْبُدُهُ وَلَا يَسْتَعِينُهُ؛ فَهُوَ لَا يَشْهَدُ أَنَّ عمله لِلَّهِ وَلَا أَنَّهُ بِاللهِ»

رجع الشيخ يلخص الكلام المتقدم إن المعتزلة خير من الجبرية في كونهم عظموا الأمر والنهي:

يقول: «فَالْمُعْتَزِلَةُ وَنَحْوُهُمْ مِنَ الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْقَدَرَ هُمْ فِي تَعْظِيمِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ خَيْرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ الْجَبْرِيَّةِ الْقَدَرِيَّةِ، الَّذِينَ يُعْرِضُونَ عَنْ الشَّرْعِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالصُّوفِيَّةُ هُمْ فِي الْقَدَرِ وَمُشَاهَدَةِ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ -الصوفية جبرية خير من المعتزلة لأنهم أثبتوا القدر- وَلَكِنْ فِيهِمْ مَنْ فِيهِ نَوْعُ بِدَعٍ، مَعَ إِعْرَاضِهِ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، حَتَّى يَجْعَلُوا الْغَايَةَ هِيَ مُشَاهَدَةَ تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَالْفَنَاءِ فِي ذَلِكَ وَيَصِيرُونَ أَيْضًا مُعْتَزِلِينَ لِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ وَسُنَّتِهِمْ، فَهُمْ مُعْتَزِلَةٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ - كونهم يسمون قد يوصفون بالمعتزلة لأنهم اعتزلوا جماعة المسلمين - وَقَدْ يَكُونُ مَا وَقَعُوا فِيهِ مِنَ الْبِدْعَةِ شَرًّا مِنْ بِدْعَةِ أُولَئِكَ الْمُعْتَزِلَةِ وَكِلْتَا الطَّائِفَتَيْنِ نَشَأَتَا مِنَ الْبَصْرَةِ»

قال المؤلف: «وَإِنَّمَا دِينُ اللهِ بَعَثَ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كُتُبَهُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ طَرِيقُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرِ الْقُرُونِ وَأَفْضَلِ الْأُمَّةِ وَأَكْرَمِ الْخَلْقِ عَلَى اللهِ تَعَالَى بَعْدَ النَّبِيِّينَ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فَرَضِيَ عَنْ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ رِضاءً مُطْلَقًا إلى أن قال: وَكَانَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: (مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُسْتَنًّا فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ فَإِنَّ الْحَيَّ لَا تُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ؛ أُولَئِكَ أَصْحَابُ محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...) -الشيخ الآن يبين، ما هو الصراط المستقيم؟ ما هو الحق؟ هو سبيل المتقدمين- وقَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطًّا وَخَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللهِ وَهَذِهِ سُبُلٌ عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾) وَقَدْ أَمَرَنَا سُبْحَانَهُ أَنْ نَقُولَ فِي صَلَاتِنَا ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الْيَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ وَالنَّصَارَى ضَالُّونَ) وَذَلِكَ أَنَّ الْيَهُودَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَتَّبِعُوهُ وَالنَّصَارَى عَبَدُوا اللهَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَلِهَذَا كَانَ يُقَالُ: (تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ فِتْنَةِ الْعَالِمِ

الْفَاجِرِ وَالْعَابِدِ الْجَاهِلِ فَإِنَّ فِتْنَتَهُمَا فِتْنَةٌ لِكُلِّ مَفْتُونٍ)

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: (تَكَفَّلَ اللهُ لِمَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَعَمِلَ بِمَا فِيهِ أَنْ لَا يَضِلَّ فِي الدُّنْيَا وَلَا يَشْقَى فِي الْآخِرَةِ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ) وَكَذَلِكَ قَوْله تَعَالَى: ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فَأَخْبَرَ سبحانه أَنَّ هَؤُلَاءِ مُهْتَدُونَ مُفْلِحُونَ وَذَلِكَ خِلَافُ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ» .

وفي الختام قال المؤلف: «فَنَسْأَلُ اللهَ الْعَظِيمَ أَنْ يَهْدِيَنَا وَسَائِرَ إِخْوَانِنَا صِرَاطَهُ الْمُسْتَقِيمَ؛ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ والصديقين وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى خير خلقهِ عبدهِ ورسولهِ مُحَمَّدٍ وآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إلى يوم الدين»

تمت بحمد الله